

فرقان القرآن

بين صفات الخالق وصفات الأكوان

تأليف

صاحب الفضيلة العلامة المدقق المحدث الفقيه الصوفى

الحائز للرشاد والقائم بالارشاد الأستاذ الشيخ سلامه

القضاعي العزامى الشافعى نفع الله بها وبه . آمين

دار

احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

فهرست اجمالى

كلمة الناشر

الحمد لله واجب الوجود الذى تنزه عن الأمكنة والأزمنة والأجزاء ، وجعلها أدلة على إمكان ما اتصف بها من الأشياء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى رفع أعلام التنزيه للملك العظيم ، وخفض بسواطع البرهان ماتلوثت به العقول فى حق الله تعالى من التشبيه والتجسيم ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين (وبعد) فقد نجمت فى القرون الماضية بين أهل الاسلام بدع يهودية من القول بالتشبيه والتجسيم والجهة والمكان فى حق الله تعالى ، مما عملته أيدى أعداء الاسلام تنفيثاً لحقدهم عليه ، ودخلت الغفلة على بعض أهل الاسلام - والمؤمن غر كريم - فقيض الله لهذه البدع من يحاربها وهم السواد الأعظم من علماء هذه الأمة ، وقد أثمر سعيهم ولله الحمد ، فصارت بفضل جهادهم كالمتحرك حركة مذبوح ، حتى إذا كانت أوائل القرن الثامن أخذت هذه البدع تنتعش إلى أخوات لها لاتقل عنها خطراً على يد رجل يدعى أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى ، فقام العلماء من أهل السنة والجماعة فى دفعها ، حتى لم يبق فى عصره من يناصره إلا من كان له غرض أوفى قلبه مرض ، ويكفيك فيه قول الامام الحجة تقى الدين السبكى فى كتابه « السيف الصقيل » : إنه رجل له فضل ذكاء واطلاع ، ولم يجد شيخاً يهديه وهو على مذهبهم - يعنى الحشوية - وهو جسور متجرد لتقرير مذهبه ، ويجد أموراً بعيدة فبجسارته يلتزمها ، فقال بقيام الحوادث بذات الرب سبحانه وتعالى ، وإن الله سبحانه مازال فاعلا - يعنى أن العالم قديم بالنوع - وأن التسلسل ليس بمحال فيما مضى كما هو فيما سيأتى ، وشق العصا وشوش

عقائد المسلمين وأغرى بينهم ، ولم يقتصر ضرره على العقائد فى علم الكلام »
اهـ بحروفه . وأطال النفس فى تعدى هذا الرجل على الفروع تعديه على الأصول
وقد رد عليه أيضا علماء فضلاء كجلال الدين القزوينى صاحب التلخيص ،
وقاضى قضاة المالكية تقى الدين أبى عبد الله محمد الاخنائى ، بكتاب سماه
« المقالة المرضية » والفخر ابن المعلم القرشى بكتاب جليل سماه « نجم المهتدى
ورجم المعتدى » وتقى الدين الحصنى بكتاب سماه « دفع الشبه » فى آخرين
يطول بنا ذكرهم ، وقد طبع السيف الصقيل مع تكملة للعلامة المحقق الكوثرى
بمصر ، وهو مع التكملة كاف لمن أراد أن يعرف الرجل وتلميذه ابن القيم ، كما
ينبغى أن يعرفا . ولما راج سوق الجهل فى عصرنا هذا قامت شرذمة بعيدة عن
التحقيق قليلة الصبر على الأبحاث العلمية ، وتمحيص المواضيع التى هوش فيها
المبتدعة ، فنظروا فى كتب الرجل نظرة عجلى فاستحسنوها وطبعوها وأشاعوها ،
ودعوا إلى ما فيها من البدع وسموها السنة والسلفية ، وزادوا أمر هذه البدع تعضيدا
بطبع كتب لبعض من اشتهر فى علم الحديث رواية ، وليس له خبرة بعلم
أصول الدين ، ككتاب التوحيد لابن خزيمة ، وكتاب السنة المنسوب لعبد الله
ابن أحمد ، فعظم الخطب واشتد رزء السنة . وكنت أشتهى أن أرى كتابا لبعض
أكابر المتقدمين من علماء الحديث ، المتضلعين من علم أصول الدين ، والحافظين
لما كان عليه السلف الصالح فى آيات الصفات وأحاديثها المتشابهة ، فيسر الله لنا
كتاب « الأسماء والصفات » للحافظ البيهقى ، فوجدته كتابا حافلا حوى العقائد
الصحيحة والنقل عن الأئمة الموثوق بهم ، ورد على المشبهة والقائلين بالتجسيم
والمعتزلة القائلين بنفى الصفات ، بالكتاب والسنة وبكلام من اختارهم الله من
القرون التى جاءت الأحاديث بفضلهم . فأحببت إشاعة هذا الخير بين الأمة ،
نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فأجمعت على طبعه مع تعليقات نفيسة
لا يستغنى القارىء عنها ، للحجة المحدث المحقق الاستاذ الكوثرى . وقد تفضل

أستاذى ناشر السنة الفقيه المتكلم ، الصوفى الخبير بعصره ، إمام الطائفتين ، مقدم الجماعة ، صاحب الفضيلة الشيخ سلامه العزامى ، بوضع رسالة نافعة فى هذا الكتاب وغيره من أشباهه ، بل من قرأها بانعام أغنته عن المطولات ، وأخذت بيده إلى لب الحق فى هذه المسائل الشريفة التى أكثر فيها المبتدعة التلبيس والتهويش ، أدام الله نفعها ونفعه ، وأطال بقاءه فى عافية آمين . والله نسأل وبنبيه المصطفى نتوسل ، أن ينشر هذا العلم الصحيح بين الأمة ، وأن يجعل عملنا هذا وسائر أعمالنا خالصة لوجهه الكريم إنه ذو الفضل العظيم ؟

نجم الدين محمد أمين الكردى

فرقان القرآن

بين صفات الخالق وصفات الأكوان

تأليف

صاحب الفضيلة العلامة المدقق المحدث الفقيه الصوفى
الحائز للرشاد والقائم بالارشاد الأستاذ الشيخ سلامه
القضاعي العزامى الشافعى نفع الله بها وبه . آمين

دار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان ربنا رب السموات والأرض رب العرش عما يصف الجاهلون . والحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله . وتبارك وتعالى لا يحصى أحد من خلقه وإن جل مقامه ثناء عليه ، سبحانه هو كما أثنى على نفسه . نحمده على ما من به من الفرقان . ونسأله المزيد من كرمه حتى نبلغ به أعلى فراديس الجنان . مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بجاه الوسيلة العظمى والمنة الكبرى علينا خاصة وعلى المؤمنين عامة خاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين . وصل اللهم وسلم وبارك على هذا النور المبين ، والسيد الذى هو عندك أمكن مكين ، سيدنا ومولانا محمد الذى هديت به من الضلالة ، وبصرت به من العمى ، وفرقت به بين الحق الذى كان قد درست معالمه ، وبين الباطل الذى قد طبق الارض ظلامه ، وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأخيار ، وسائر التابعين لهم بإحسان ، لا سيما حماة شريعته ، والفقهاء فى سنته ، وعلينا معهم واجعلنا بفضلك منهم ، واختم لنا بما ختمت به من الخير لهم إنك حميد مجيد ﴿ أما بعد ﴾ فاعلم أيها الأخ فى دين الله ، والرفيق فى سبيله الطالب لمرضاته والهارب من غضبه ، ثبت الله على دينه قلبى وقلبك ، وشرح بنور كتابه وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام صدرى وصدرك ، أن الله تبارك وتعالى قد أنزل فى كتابه على نبيه الأمين وخاتم النبيين صلى الله عليه وعليهم وبارك وسلم قوله المجيد (هَلْ ينظرُون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) أى علامات قربها ، فان الاشراط جمع شرط ــ بفتحتين ــ وهو العلامة . وصح عنه عليه الصلاة والسلام فيما أخرج إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ــ المتوفى سنة ست وخمسين

ومائتين ـ في جامعه الذى هو أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ، كما اتفقت عليه كلمة جمهور أكابر أهل هذا الشأن ، « بعثت أنا والساعة كهاتين » ـ وأشار إلى أصبعيه الشريفتين المسبحة والوسطى ـ فكان ذلك من ربنا تبارك وتعالى ونبينا عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ، حثا للعباد على الانتباه من غفلتهم، والاستيقاظ من رقدتهم ، للتأهب والاستعداد لما ينفعهم يوم المعاد ، فنفع الله بذلك من شاء من عباده . وجد سلفنا الصالح رضى الله عنهم في العلم والعمل ، حتى لحقوا بربهم عز وجل ، وقد رضى الله عنهم ورضوا عنه . أفلا نكون نحن أولى بالتشمير عن ساعد الجد فيما خلقنا لأجله ؟ وقد صرنا في النصف الثانى من القرن الرابع عشر من هجرة سيد البشر الذى نزل عليه هذا التحذير ، وجاء بهذا النذير ، بلى ، وقد أحدث الله بعد نبيه أمورا وأمورا من أشراط الساعة ، كما أخبر به عليه الصلاة والسلام في الأحاديث الصحاح المستفيضة ، وقد أفردت بالتأليف . ومن أجمعها وأنفعها كتاب « الأشاعة في أشراط الساعة » للشريف العلامة السيد محمد بن عبد الرسول الحسينى البرزنجى رضى الله عنه المتوفى سنة ثلاث ومائة وألف ، وقد طبع بمصر فليطلبه مريد الآخرة ، فستعلم إذا قرأته أو ما كتب في أبواب الفتن من صحاح كتب الأئمة المحدثين أنك في آخر آخر الزمان فقد تحققت الأشراط كلها إلا قليلا ، وهو الاشراط الكبرى ، وكأنك بها وقد فجئتك ، ألم تر إلى ما أصبحت فيه من زمان هاجت فيه بحار الفتن ، وتلاطمت بالبدع المهلكة أمواجها ، وبيع فيه الهدى بالهوى ، والتبس فيه الحق بالباطل ، وسميت الأشياء بغير أسمائها ، فسمى الثبات على الدين الحق جمودا ، والخروج على التعاليم الربانية نباهة وتجديدا ، والشك فيما علم بالضرورة من دين الله الحق فلسفة ونبلا ، والانكار للاوليات من اليقينيات حصافة وعقلا ، وانتشرت الفوضى في العقائد والأعمال ، والأخلاق والآداب ، حتى أصبح لكل جماعة ، وأكاد أقول لكل شخص ، ما شاء له الهوى وإن نابذ كل فضيلة ، ومثل كل

رذيلة ، ويكفى فى نظره أن يضع لما تمسك به ما أحب من الأسماء ، وإن أجمع على خلاف ما رآه كل العقلاء ، فانه يرى أن لا عقل إلا عقله ، ولا رأى إلا ما رآه ، ولو كانت هذه الثورة قاصرة على الطوائف البعيدة عن الانتساب إلى العلم ، والانتماء إلى خدمة الدين ، لهان الأمر بعض الشىء ، ولكنها قد دبت إلى تلك الأوساط التى تنادى بأنها خادمة الدين وحاملة لواء السنة ، والداعية إلى المحجة ، والقائمة عن الله بالحجة ، وكثرت الجمعيات الحاملة للألقاب الخلابة ، المتسترة بستور الأسماء الجذابة ، فاذا دعاك إليها حسن ماتسمع من خبرها المطوى فى أسمائها ، صرفك عنها ما ترى فى مخبرها الذى تتكشف عنه حقائقها المخبوءة بين جدران دورها ، وتنم عنه فلتات ألسنة قادتها ودعاتها ، وماتسطره بين آونة وأخرى صحائفها ومجلاتها . فمن كل جمع قلة حزب ، ومن كل فرد من الحزب إمام يستفتى و يفتى ، وما أسهل الفتيا عليه ، فانه لا يرى عليه فيها إلا أن يرجع إلى رأيه الخاص ، لا يتحرز من مخالفة إجماع ، ولا يتقيد بما عليه الصالحون من سلف هذه الأمة وأئمتها ، وليت هذه الفوضى اقتصرت على ما هو من المسائل الفرعية والأبواب غير الأصلية ، كالربا والزواج والطلاق ، ولكنها تخطتها إلى صميم الأصول ، ولباب الدين ، والكلام فى صفات الله تعالى وأسمائه ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، والخوض فيما تشابه من آى الكتاب العزيز ، وفيما أشكل على أمثالهم من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، والله يعلم وأهل العلم يعلمون أن الجل منهم ، إن لم نقل الكل ، أحط من أن يرقى إلى ماظهر من علمها ، فضلا عن الدخول إلى باطن سرها ، وقد تزين هؤلاء للعامة بدعوى الانتساب إلى السلف ، والأخذ بالكتاب والسنة ، وساعدهم على رواج دعواهم انتشار الجهل بين الناس ، وعدم علمهم بما كان عليه السلف الصالح ، وقلة تفقههم فى أصول الدين وفروعه ، كما هو الشأن عند اقتراب الساعة جداً ، وفاقا لما جاء به الصادق المصدوق عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأنمى البركات « لاتقوم الساعة حتى يقل العلم و يكثر

الجهل » وفى الحديث الآخر « لاتقوم الساعة حتى يؤتمن الخائن ويخون الأمين، ويقبض العلم ويلقى الشح » وفى لفظ آخر « إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور العباد ، ولكن يقبض العلم بموت العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساً جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » . وسأل سائل النبى ﷺ : « يارسول الله متى الساعة ؟ فمضى فى حديثه ولم يجبه ، حتى ظنوا أنه لم يسمع ماقال ، أو سمعه ولكن كرهه ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : أين السائل ؟ قال : هاأنا ذا يارسول الله ، قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال كيف إضاعتها ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله » وفيه « لاتقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون يحدثونكم بمالم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ،فاياكم وإياهم لايفتنونكم ولايضلونكم » وفى الحديث الآخر « سيكون فى آخر الزمان أقوام حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرية ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » والرمية فعيلة ، بمعنى مفعولة من الرمى ، وكل ذلك فى الصحاح إلى أشباه له كثيرة ، بحيث إذا أحطت بها خبراً رأيت كأن النبى ﷺ مع أهل كل زمان يحاضرهم ببيان ماهم عليه من فساد ، وينصحهم أثمن النصائح وأغلاها بما ينجيهم من ذلك الفساد ، وينقذهم يوم التناد ، فجزاه الله عن أمته خير الجزاء ، ولا عجب فهو المخاطب بقوله تعالى (وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)ومن ذا الذى يعرف قدر هذا الفضل ، وقد استعظمه الملك الكريم الأكرم الذى هو من كل عظيم أعظم ؟ وقد أخرج الامام أحمد فى مسند أبى بكر من مسنده رضى الله عنهما « أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصبح ذات يوم واستمر على جلوسه فى مصلاه لايتكلم ولايكلمه أحد،حتى إذا كان ساعة الضحى ضحك واستمر على جلوسه وسكوته اليوم كله ، لايقوم إلا لأداء الفريضة ، ويعود إلى حاله ، ففزع أصحابه الكرام فكلموا أبا بكر رضى الله عنه أن يستخبر لهم عن الأمر ، فقص الحديث . وفيه أن رسول الله ﷺ قال له : عرض على ماهو كائن

من أمر الدنيا وأمر الآخرة » وفى رواية لغير أحمد « إن ربى أطلعنى فى يومى هذا على ما كان وعلى ما يكون » فمن ذا الذى يحصى خصائص هذا النبى الكريم ويقدر نصائحه وجهاده وغَنَاءه وعَنَاءه لمصلحة النوع البشرى كله ، من ذا الذى يقدر ذلك حق قدره ؟ وتالله ما بالغ مادحه حيث يقول

فمبلغ العلم فيه أنه بشر * وأنه خير خلق الله كلهم

﴿ فصل ﴾

واعلم أنه ما من بدعة حدثت أو تحدث بعده عليه الصلاة والسلام إلا وفى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الرد عليها ، والمخرج عنها ، لقوم يفقهون ، أجزل الله حظنا وحظك من الفقه فى دينه ، وآتانا وإياك الفهم فى كتابه ، وكمال العلم بما تهدى إليه سنة نبيه . ومن ظن أن أهل العلم فضلا عن سواهم سواسية فى فهم الكتاب والسنة ، فقد ظن خطأ وبعد عن الصواب بُعد الشمس عن الأرض ، إلا أنه ليس عليه ضياء . وبيانا لهذا التفاوت حث رسول الله ﷺ حاضرى مجلسه الشريف ، ومقاماته المنيفة ، أن يبلغ الشاهد الغائب . ففى صحيح البخارى وغيره « ألا ليبلغ الشاهدُ الغائبَ فرب مبلَّغ أوعى من سامع » . فلم يقتصر على الأمر حتى بين لهم عليه الصلاة والسلام سر الأمر وحكمته ، وفى لفظ آخر « نضَّر الله امرأ سمع منا حديثا فوعاه وأداه كما سمعه ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » وفى لفظ آخر « رب حامل فقه ليس بفقيه » رواه البزار باسناد حسن وابن حبان فى صحيحه وصححه الحافظ المنذرى — صلى الله وسلم وبارك عليه ما أحسن ما رسم ، ولو أن الناس وقفوا عند ما رسم ما نُكبت الأمة بهذه البدع الشنيعة فى الأصول والفروع ، فانظر إلى قوله الشريف للراوى عنه « كما سمعه » فهو تصريح بالحجر على غير الفقيه أن يخوض فيما رواه بزيادة تفسير أو تأويل ، ولكن يدع الأمر فى ذلك لمن تأهل له ، فما كل من روى يقبل رأيه الذى رأى ، ولا كل

من حفظ اللفظ كان أهـلا لبيان كُنه المعنى وما يستنبط منه ، و إذا كان ذلك كما وصفنا فى كلام رسـول الله ﷺ فما ظنك بكلام رب العالمـين ؟ و واضح كل الوضوح أن لكل فن مؤهلات ، فمن خاض فيه بدونها كان خطؤه أكثر من صوابه وضرره أقرب من نفعه .

وكان الناس فى الصدر الأول على الحدود التى حدّها لهم أعرف الناس بالهدى وطرقه ، وأرحمهـم بهم ﷺ ، فعم الخـير كل أمورهم عِلميّها وعَمليها ، ولما بدأ الناس يبعدون عن عهد النبوة شرعت شرا ذم منهـم تتخطى الحدود ، فتكلم غير الفقيه فيما روى بما رأى ، وقال فى الأمور العامة من لايحسن أموره الخاصة ، وتحقق ما أخبر به النبى ﷺ من أن الساعة « لا تقوم حتى يتكلم الرُّوَيْبضةُ » وهو تصغير رابض والتاء للمبالغة لا للتأنيث ، وهو الرجل الحقير : ربض عن معالى الأمور أى قعد عنها . وقد روى فى الحديث تفسيره قيل : يا رسول الله ما الرويبضة ؟ قال : « الرجل التافه ينطق فى أمور العامة » وما زال أولئك الشُّذَّاذُ يتعصبون لأهوائهم ، ويتبعهم أمثالهم ، وكثير من الناس — كما قال الامام على رضى الله عنه — هَمَجٌ رَعاع أتباع كل ناعق . وطال العهد حتى صار لكل خلْف — بسكون اللام — من تلك الطوائف سلف طالح ، كما للخلف السلف الصالح ، وقد ثبت فى الحديث مرفوعا « يحمل هـذا العلمَ من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجـاهلين » رواه عن النبى ﷺ عدة من الصحابة ، وأخرجه ابن عدى من طرق ، وجزم الحافظ العلائى بأنه حديث حسن ، ورواه النووى فى أول تهذيبه ، وشرح ما يستنبط منه .

﴿ فصل ﴾

ومما يؤسف له جِـدّ الأسف أن بعض الحفاظ للسنة وقع فى هـذا الخطأ الكبير فخاض فى تفسير الأحاديث المتشابهة وقال فى ذات الله وصفاته ما أنكره

عليه أجلة الفقهاء لهذا الشأن الأعلى . والفقه فقهان فقه أكبر وهو العلم المتعلق بما ينبغى لله وما لا ينبغى له ، وما يتصل بذلك وهو المسمى فى عرف المتأخرين بعلم الكلام ، وفقه كبير وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية . ومن الغلط العظيم الذى وقع فيه الكثير من الناس ، فاضلهم ومفضولهم ، أن يؤخذ عن الرجل ما لا يحسنه ، لأن له الأمامة فى فن آخر أحسنه ، وكثيراً مايكون الرجل إماما فى علم الأصول وهو متوسط أو دون المتوسط فى علم الفروع ، وبالعكس ، و إماماً فى الحفظ ونقد الرجال ومتون الأحاديث والعلل ، وهو فى غير ذلك نازل كل النزول ، حتى إنك لتعده فيه من العامة ، وأنت إذا أحكمت الفكر واطلعت على طبقات الرجال وعرفت أحوال أهلها ، رأيت لما قلنا شواهد كثيرة لاتدع مدخلا للشك إلى نفسك فى ذلك ، ولو شئنا لتحدثنا إليك عن كثير من أهل العلم كان لهم التقدم الفائق فى الفن والفنين والأكثر ، فاذا تكلموا فيما أحسنوا رأيت منهم أئمة سادة ، ونقدة قادة ، و إذا نطقوا فى غيره شهدت غباً تندهش له ، وعامية لاينقضى منها عجبك ، بيد أن هذه الرسالة عجالة نريد فيها الاختصار بقدر الاستطاعة ، ومن هنا تعلم السر فيما قال المصطفى ﷺ « أنزلوا الناس منازلهم » وقد احتج به الامام مسلم ابن الحجاج المتوفى سنة إحدى وستين ومائتين فى مقدمة صحيحه على من يروى عن الضعفاء كأنه يسوى بينهم و بين الثقات ، وأصاب رضى الله عنه ، فمن كان إماما فى حفظ الحديث والخبرة بالأسانيد والعلل فليؤخذ عنه ماهو مُبرِّز فيه من الحكم بصحة الحديث أوحسنه أوضعفه أو وضعه ، أما بقية علوم الحديث دراية كاللغة والصرف والنحو وما إلى ذلك من علوم العربية والفقه بقسميه فلا يؤخذ عنه ، فربما كان عاميًا أو قريبا منه فى بعض هذه الفنون أو كلها ، بل ربما ادعى لنفسه بغير حقٍّ التبريز والأمامة فى غير ماهو مبرِّز فيه ، فأفتى وألَّف ، فلا يغرنك منه ذلك ، و إذا أنت أردت ميزانا صادقا تعرف به حقيقة دعوى الرجل فدونك هذا الميزان : ترجع إلى أهل الفن الذى تكلم فيه فتنظر ماقدر الرجل عندهم

فبشهادتهم تأخذ، فهم الإخصائيون بالفن، والذين يتميز لديهم المدّعى من الصادق، ويستحيل فى العادة أن يجمع أهل الفن على القدح فى رجل حسدا و بغياً ، هذا ولا يسقط الرجل عن إمامته فيما فاق فيه تبعيته لغيره فيما لم يحسن ، و رد قوله فيه إذا هو افتأت على الكلام فيما ليس له بأهل . وتاريخ الجهابذة حافل بأخذ كل فن عن إمامه ، وأهل الاتقان له ، هذا تاج الدين السبكى كان الذهبى من شيوخه فى الحديث ، وشهد له بالحفظ ، ولم يكن يتبعه فى آرائه الخاصة المنحرفة ، وشهد له وعليه ، فقال بعد ما أثنى على حفظه « والحق أن شيخنا كان قليل الخبرة بمدلولات الألفاظ » ومثل لذلك بما لا نطيل به . وهذا محمد بن إسحاق بن خزيمة المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ،له الامامة فى الحفظ والعلم بالعلل فى المتون والأسانيد وفنون سوى علم الكلام، قال فيه الاستاذ الأجل أبو سهل الصعلوكى المجمع على إمامته فى الحديث وأصول الدين وفروعه ، المتوفى سنة تسع وستين وثلاثمائة ، وهو أحد الرواة عنه — حين ألف كتابه الذى سماه التوحيد — : إن شيخنا تكلم فى مالا يعنيه .وطعنه الامام فخر الدين الرازى المتوفى سنة خمس وستمائة فى تفسيره بما لعلنا ننقله لك فى موضع آخر و إنما أتى هذا الامام المحدث من قبل دخوله فيما لا يحسنه . وفى الأثر « رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعد طوره » هذا هو دأب الذين يريدون أن يحيوا سنة نبيهم و يأتوا البيوت من أبوابها ، و بفضل الله تعالى و يمن رسوله الكريم توفرت الجماعات المبرّزة فى الفنون المتعلقة بالدين مباشرة أو بواسطة ، واختلفت الدواعى فكثر الاخصائيون حين امتد رواق الاسلام على المشارق والمغارب ، حتى تمحصت الحقائق ، وصارت العلوم الاعتقادية والخلقية والعملية لبا بلا قشر ، وزبداً لا يحتاج إلى مخض ورجعت سهام مكايد أعداء الاسلام فى نحورهم ، وصار من أجلى الجليات أن حامل لواء السنة فى العقائد الاسلامية أبو منصور الماتريدى المتوفى سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة ، وأبو الحسن الاشعرى المتوفى سنة بضع وعشرين وثلاثمائة

وشيعتهما ، وفى الفقه الشرعى الأئمة الأربعة ، والمبرزون من أتباعهم ، وفى علم أحوال القلوب الجنيد المتوفى سنة بضع وتسعين ومائتين ، وأبو القاسم القشيرى المتوفى سنة خمس وستين وأربعمائة ، ومن على شاكلتهما . وقد كثر من هؤلاء الافاضل متقدميهم ومتأخريهم المصنفات بين مطول ومختصر وبين ذلك . وكان الناس بخير أيام كانوا يرجعون إلى الاقتباس من هؤلاء النجوم ، والاغتراف من أنهار علومهم العذبة الجارية إليهم من بحار الكتاب والسنة .

أما وقد ديست هذه الرسوم وانتهكت تلك الحرم ، واجتمع فى كثير من أهل هذا العصر المهلكات الثلاث : الشح المطاع ، والهوى المتبع ، وإعجاب المرء برأيه ، فقد أصبح من الواجب الاكيد ، واللازم المحتم ، أن أقدم لك أيها الأخ نصيحة تطرد عنك إن شاء الله هذه الظلم المنتشرة ، وتزيح عن مشام روحك دخان هذه البدع التى صارت بمدخولها مشتهرة ، وهى — نسأل الله السلامة منها — كثيرة جدا ، ليس فى وسع هذا المختصر استقصاؤها ، فسأذكر لك أشدها خطرا ، وأعمقها فى إفساد القلوب وسد أبواب الرحمة الالهية أثرا ، وأكثرها التباسا على من لم يمارس علوم الكتاب والسنة ، فان دعاتها ينادون الناس إليها باسم الكتاب والسنة فيما يزعمون ، وأنها طريق السلف الصالح ، ولذلك تسمعهم يلقبون أنفسهم بأنهم السنيون والسلفيون ، وإنى بادىء بما هو الأهم من ذلك ، وهو ما تعلق بذات الله تعالى وصفاته ، فان هؤلاء المبتدعة وصفوا الله تعالى بصفات خلقه ، فجوزوا عليه الجلوس والنزول الحسيين ، والاجزاء كالوجه والعين واليد والرجل الحسيات ، ونسبوا إليه سبحانه المكان والجهة ، تمسكا بآيات من الكتاب يقرؤن كلمها ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وتمسحا بظواهر أحاديث كثير منها مما لا يحتج به ، لما بينه أهل النقد من عللها ، والصحيح منها أجل وأعلا من أن تحوم حول رفيع معانيه هذه الافهام العامية الساقطة ، وماذا نصنع وقد امتلأت هذه النفوس عجبا ، وسالت ألسنتها زراية على الأولين والآخرين ، من أئمة هذه الأمة وأكابرها ،

وينبزوهم بما استطاعوا من الألقاب الشائنة ، وليس لهم ذنب عندهم إلا أنهم فرّقوا بين الخالق والمخلوق ، فقالوا بتنزيه الله فى ذاته العلية ، وصفاته المقدسة عن كل مايختص بالاكوان ، وجعلوا القرآن إمامهم فى هذا الفرقان ، واستغل أولئك النفر جهل كثير من أهل هذا العصر بتاريخ هذه الفرق الجاهلة ،فأوهموا الناس أنهم يمثلون السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم من التابعين لهم بأحسان، والتاريخ يشهد والعلم بكتاب الله ينادى أنهم مامثلوا إلا سلف سوء من أشياخ المشبهة وأئمة المجسمة ، الذين يفسرون الكتاب بأهوائهم ، ويحملون السنة على آرائهم ، و يتقولون على معانى كتاب الله ، و يضعون على رسول الله، و يأخذون بالضعيف إذا وافق منهم هوى ، و يردون الصحيح أو يشككون فى صحته إذا كان حجة عليهم .

﴿ فصل ﴾

أما قولنا إن التاريخ يشهد فيكفيك فى بيانه أن تطلع على الكتب المبينة للفرق بعد النبى ﷺ ، ككتاب الفصل لابن حزم ، والفرق بين الفرق للامام المحقق عبد القاهر البغدادى ، والملل والنحل للشهرستانى ، وعلى كتب الطبقات كطبقات تاج الدين السبكى ، وتهذيب التهذيب ولسان الميزان كلاهما للحافظ ابن حجر العسقلانى ، وعلى الكتب الموضوعة فى التاريخ العام ، كتاريخ ابن الأثير وغيره ، فستجدها ناطقة بأن فرقة المشبهة ليست وليدة عصرنا هذا ، بل لها عرق ممتد إلى زمن التابعين ، وكثيراً ما كانت أستارهم التى يتحجبون بها عن العامة و بعض الخاصة ممن سلم صدره ولم يعن بالتفتيش عن أطوارهم ومؤلفاتهم ، هى التزهد والتقشف والاشتغال برواية الحديث وجمعه حتى إذا عرفوا نبذوا ، وكان أهل الحق يلقبونهم بألقاب تكشفهم لمن لايعرفهم : بالمشبهة لتشبيههم الحق تبارك وتعالى بخلقه فى وصفه بما هو من خواص الخلق ، و بالمجسمة لقولهم فى الله

تعالى بالاتصاف بما هو من لوازم الجسم لزوما بينا كما ستعرفه إن شاء الله تعالى ، وبالحشوية نسبة إلى الحشو بسكون الشين، وهو اللغو الذى لااعتبار له ،فضلا عن أن يكون منسوبا إلى الله و إلى رسوله،أو مذهبا يدان الله تعالى به . ومازال أهل الحق لهم بالمرصاد ـ وهم الكثرة من علماء هذه الامة فى كل زمان بحمد الله تعالى ـ يناظرونهم حتى يفحموهم ، ويسردون فى الطبقات تاريخهم ، ويصنفون المصنفات فى الرد على مفترياتهم . اقرأ ترجمة مقاتل بن سليمان المتوفى سنة خمسين ومائة فى تهذيب التهذيب ، فستجد شهادة إمام الأئمة أبى حنيفة رضى الله عنه ـ وهو من هو فى علم أصول الدين وفروعه ، والآخذ عن بعض الصحابة وأكابر التابعين ـ تجد هذا الامام الأعظم شهد على هذا الرجل أنه الذى حمل إليهم من خراسان بدعة التشبيه ، ولفظه رضى الله عنه : « أتانا من المشرق رأيان خبيثان :جهم معطل ، ومقاتل مشبه » . وقال أيضا : «أفرط جهم فى النفى حتى قال إن الله ليس بشىء ، وأفرط مقاتل فى الاثبات حتى جعل الله تعالى مثل خلقه » . فانظر كيف سماها بدعة وقال إنها آتية من ناحية بلاد العجم ، ولم تأتهم من ناحية العرب والبلاد التى هى نهضة الوحى . وانظر إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه كيف اشتد على من قال له : الرحمن على العرش استوى ، كيف استوى ؟ وعلته الرحضاء أى العرق الكثير وقال : « ما أظنك إلا صاحب بدعة » وإنما ظنه كذلك لأن سؤاله عن كيفية الاستواء يدل على أنه فهم الاستواء على معناه الظاهر الحسى الذى هو من قبيل تمكن جسم على جسم واستقراره عليه ، وإنما شك فى كيفية هذا الاستقرار فسأل عنها ، وهذا هو التشبيه بعينه الذى أشار إليه الامام بالبدعة ، ويوضحه ماروى اللالكائى فى شرح السنة بالسند أن الامام قال فى جوابه هذه العبارة « الاستواء مذكور ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » إلى آخره . فمن رواه « الاستواء معلوم والكيف مجهول » ينبغى أن ترد

روايته إلى هذا المعنى، يعنى أن الاستواء معلوم الورود فى الكتاب، فيرجع إلى قوله فى الرواية السابقة «الاستواء مذكور» وقوله : والكيف مجهول. أى لا تعلم له ماهية بالمعنى المتعارف، ولا يعقل له وجود فيما يتعلق بجناب الحق جل وعلا، فيرجع إلى قوله فى تلك الرواية «والكيف غير معقول» لا أن هناك كيفا وصفة لذلك الاستقرار لكنها لا تعلم، فان أصل الاستقرار والتمكن لا وجود له، فضلا عن صفته، ومن ظن بالامام سوى هذا فقد غلط، كيف لا وقد ثبت النقل عنه أنه سئل عن حديث النزول فقال «هو نزول رحمة لا نزول نقلة» وممن ذكر ذلك عنه أبو بكر بن العربى. وكان رضى الله عنه لا يعجبه من المحدث ان يحدث العامة بهذا الحديث وأشباهه مما يوقعهم فى ورطة التشبيه، وله رضى الله عنه فى هذا وجه وجيه، ونظر سديد. ويؤيده من السنة ما روى مسلم فى اصحيحه عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه سأله ﷺ عن حق الله على عباده وحق العباد عليه تعالى الحديث، وفيه «أفلا أخبر الناس» ؟ يعنى العامة فقال ﷺ «إذاً يتكلوا» فقد منع ﷺ «العالم من تعليم بعض العلم، إذا لم يكن لمتعلم يحسن فهمه ويتأوله على غير وجهه، فانه حينئذ يكون ضلالا له، ووبالا عليه. ووقع نحو هذه القصة لأبى هريرة رضى الله عنه أخرجها البخارى رحمه الله تعالى بطولها. وكذلك قال الامام الأجل أبوعبد الله الشافعى رضى الله عنه «آمنت بما جاء عن الله على مراد الله. وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله» يعنى رضى الله عنه لا على ما تفهم العامة من المعانى الحسية الجسمية. ونقل ابن الجوزى فى كتابه «دفع شبه التشبيه» عن الامام أحمد رضى الله عنه نحواً من هذا، فرد أبلغ الرد عل المنتسبين إليه الناسبين له ما هو براء منه، ولهذه الفئة ولع شديد بافتراء الأباطيل ونسبتها إلى أكابر أئمة هذه الأمة، ولو استقريت القرون منذ نَجَمت هذه البدعة لرأيت فى كل قرن إلى زمانك هذا من هذه الطائفة فلولاً تشاغب وتُموِّه وبإزائهم جيوشا من أهل

السنة بحق تدافع وتبين ، بين مناظر يجادل عن الحق فى المجالس الخاصة والعامة ، ومؤلف يزيل ظلمات شبههم بنور الحجج المعقولة المنقولة حتى تركوا من هذه المؤلفات القيمة لطالب الهدى ثروة لا تنفد ، وكنوزا لا تبيد . على الأبد ، ومن هذه الكنوز الفائقة وتلك الثروات العظيمة ؛ كتاب الامام الحافظ الثقة الحجة المبرز فى علم الحديث رواية ودراية ؛ علم الفقهاء أبى بكر أحمد بن الحسين ابن على البيهقى المتوفى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة . كثر فى زمانه رضى الله عنه الخوض فى أسماء الله تعالى وصفاته بما لا يليق بجنابه عزوجل ؛ فألف كتابه المسمى «بالاسماء والصفات» قال الامام تاج الدين السبكى : لا أعلم له فى بابه نظيراً . وصدق رضى الله عنه فانه عمد فيه إلى جمع الأحاديث التى تعلقت بها المبتدعة من المشبهة والحشوية ، فبين ما لا يصح الاحتجاج به منها بذكر ما فيه من علة ، وأزال الاشكال عما صح من متشابهها ، وضم إليها ما ناسبها من آيات الكتاب . وأضاف إلى ذلك ما قال أكابر العلماء ممن قبله . فجزاه الله عن دينه وأمة نبيه ﷺ خير الجزاء ، كأنه رضى الله عنه قصد بكتابه هذا غسل العار الذى ألحقه الحافظ ابن خزيمة بأهل الحديث ، فانه ألف كتاباً سماه «كتاب التوحيد» ، وليته اقتصر فيه على جمع الأحاديث المتشابهة ، ولكنه فسرها بما لا يصح أن يعتقد فى الله تعالى ، ولا يقول به المحققون من سلف ولا خلف ، وقد طعنه الامام فخر الدين الرازى طعنة أردته قتيلا ، حيث قال رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى (ليس كمثله شىء) : واعلم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية فى الكتاب الذى سماه بالتوحيد ، وهو فى الحقيقة كتاب الشرك ، واعترض عليه ، وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات ، لأنه كان رجلا مضطرب الكلام ، قليل الفهم ، ناقص العقل اه . ثم ساق كلامه وهو كلام لا يقوله مؤمن محقق نافذ البصيرة فى المعرفة بربه ، ولذلك ضربنا عن نقله ولئلا يتشوش به ضعيف ، ثم قال الامام الفخر رضى الله عنه : وأقول هذا المسكين الجاهل إنما وقع

فى أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف حقيقة المثلية وعلماء التوحيد حققوا الكلام فى المثلية ، إلى أن قال : وإن هذه الكلمات التى أوردها هذا الانسان إنما أوردها لكونه كان بعيداً عن معرفة الحقائق ، فجرى على منهج كلمات العوام ، فاغتر بتلك الكلمات التى ذكرها ، ونسأل الله حسن الخاتمة » اه

ومن قرأ توحيد ابن خزيمة عذر هذا الامام فيما قال ، وقد أسلفنا لك أن الأمامة فى الحفظ والعلم بالعلل فى متون الأحاديث وأسانيدها لا تقتضى الامامة المطلقة فى كل فن ، وذلك ظاهر لا يحتاج إلى بيان ، فلا ينبغى أن يقتدى به إلا فيما هو إمام فيه ، ومن خالف هذه القاعدة لم يَسلم له دينه فى أصول ولا فى فروع ، فنصيحتى لك إذا أردت السلامة لنفسك أن تكون فى عقائدك على ما دونه الامامان أبو منصور الماتريدى وأبو الحسن الأشعرى ، فانه هو ما يهدى إليه كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، من غير ميل إلى جانب إفراط أو تفريط ، وأن تكون فى الفروع على مذهب أحد الأئمة الأربعة رضى الله عنهم ، وأنت إذا انتصحت بهذه النصيحة ولم تحد عنها كنت على طريق الصحابة والتابعين لهم بأحسان ، فان من سمينا لك من الأئمة هم سالكوها والناشرون لها ، والذابون عنها والداعون إليها ، ونسبة الاتباع إليهم إنما هو لذلك فقط . لا لأنهم مبتدعوها حاشاهم من البدع ، وكيف وهم الذين أطفأوا نيران البدع ، وأحيوا نور السنن ، ولولاهم وعلماء أتباعهم لكان الناس اليوم على غير ما جاء به المصطفى ﷺ ، فشكر الله سعيهم ، وجعل محيانا ومماتنا على سبيلهم ، إنه الجواد الكريم .

﴿ فصل ﴾

قرأ علينا ولدنا التقى النقى العالم العامل المحب للسنة نجم الدين ابن شيخنا شمس العارفين وقطب الواصلين ، قدوتنا إلى الله تعالى ، الشيخ محمد أمين ، هذا الكتاب « كتاب الحافظ البيهقى » فاذا هو فى بابه نادر المثال ، رفيع الموضوع

بل موضوعه أرفع المطالب وأسناها ، فانه فى الأسماء العلية والصفات المقدسة الربانية ، وقد زينه بالآيات والأحاديث المصطفوية ، على صاحبها أفضل صلاة وأجل تحية ، ونوّره بكلمات المحققين من سلف هذه الأمة الصالح ، وحملة السنة السَّنية ، الذين هم على الصراط المستقيم ، فرغب فى طبعه بهذه الديار المصرية ، حبّاً فى العلم ، ونشراً للسُّنة ، و إحياء لمذهب السلف الصالح ، وليعلم من لا خبرة له بتاريخ البدع ومُروِّجيها أن ما انتشر فى زماننا من القول بالجهة والأعضاء والحركة فى حق ربنا تبارك وتعالى ، إنما هو قول سلف المبتدعة ، ومن اغتر بزخرف قولهم من المحدثين الذين لم يبرعوا فى معقول ، ولم يقفوا عند منقول ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، فحمدنا الله على هذا التوفيق ، و رغب إلينا لفيف من أهل العلم أن نضع على هذا الكتاب تعليقات توضحه ، فلم نره فى حاجة كبيرة إلى ذلك ، بعد الذى تفضل بوضعه عليه العلامة المدقق والفهامة المحقق ، الأستاذ الكبير الشيخ محمد زاهد الكوثرى و رأينا أن أولى ما نُقدمه بين يدى هذا الكتاب ، وأحرى ما تتوجه إليه العناية ، هى رسالة نبين فيها وجه إطباق المحققين من سلف أهل السنة وخلفهم ، على صرف آيات الاستواء على العرش والوجه والعين واليد وما شابهها من الآيات والأحاديث عن الظاهر المتبادر لأذهان العوام وعدهم ذلك من المتشابه بلا خلاف بين متقدميهم ومتأخريهم ، فى أن المعنى الظاهر الحسى الذى هو من لوازم الأجسام غير مراد لله و رسوله قطعاً ولاشك أن هذا منهم رضى الله عنهم إجماع على التنزيه ، غير أن أكثر المتكلمين لم يتكلموا فى تعيين المراد ، واكتفوا بتفويضه إلى الله و رسوله ، وهل يسمى ذلك تأويلاً أولا ؟ رأيان للناظرين ، والكثيرين ممن بعدهم تكلموا فى تعيينه على ما تقتضيه اللغة التى نزل بها القرآن على ما سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى .

و يتنجز القول فى هذا المطلب الأعلى وما يتبعه فى مقدمة ومقصد وخاتمة .

فالمقدمة فى أمور لا يستغنى طالب هذا المطلب الأعلى عن معرفتها قبل

الاشتغال بتحصيله ، والمقصد فى الفرق بين الصفات المختصة بالخلق والصفات المختصة بالحق ، على ما يرشد إليه الكتاب العزيز ، ويهدى إليه القرآن الحكيم والعقل السليم ، فان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والخاتمة فى بيان معنى الايمان والكفر ، وفيها يتبين لك أن التوسل والتشفع والاستغاثة بالنبيين عليهم الصلاة والسلام ، والصالحين رضى الله عنهم ، بعد وفاتهم ، مع اعتقاد أنهم مفاتيح الرحمة وأسباب الخير ، والفاتح لها بهم هو الله وحده ، ليس شركا ولا كفرا ، ولا حراما ولا مكروها ، بل هو سبيل المؤمنين ، وطريق عباد الله المرضيين . وسميناها « فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الاكوان » والله نستعين على تيسير ما أردنا به النصح للامة ، و إياه نسأل متوسلين إليه سبحانه بأكرم خلقه عليه ، وأحبهم إليه ، سيدنا ومولانا محمد نبى الرحمة و بجميع المرضيين عنده سبحانه ، أن يجعل ذلك العمل خالصا لوجهه الكريم ، وسببا للفوز برضاه الدائم العميم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

المقدمة

وفيها فصول تلقى لك أضواء على هذا المقصد الأسنى الذى هو تمييز ما للخالق من الصفات ، على مايدل عليه كتاب الله تعالى ، ويهدى إليه الفهم الصحيح فيه ، والله نستعين على تنزيل هذه المعانى العليا إلى المستوى الذى لا يعلو على العامة ارتقاؤه ، ولا يخفى على الخاصة ضياؤه

﴿ فصل ﴾

ينقسم الشىء باعتبار قبوله للاتصاف بالوجود أو العدم إلى أقسام ثلاثة : ممتنع لذاته ، وممكن لذاته ، و واجب لذاته ، ومن السهل عليك أن تفهم ذلك ، فان اتصاف الولد بالوجود قبل أن يوجد أبوه ممتنع أو مستحيل أو غير جائز ، كيفما

شئت من هذه الالفاظ فقل . فالمعنى واحد . واتصافه بالوجود بعد وجود أبيه ، وقبل أن يرزقه أبوه ، ممكن ، أو جائز أو غير ممتنع ولا واجب ، وكذلك هو بعد أن يولد ، إلا أنه قبل أن يولد ممكن لا يزال فى العدم ، و بعد أن يولد هو ممكن قد كساه الوهاب حلة الوجود ، وجميع ماتراه أو تحس به من هذه الموجودات العلوية والسفلية هو من هذا القسم أى (الموجودات الممكنة) وأما واجب الوجود الذى لا ابتداء لوجوده ولا انتهاء له ، ولا يقبل وجوده الزوال ولا الانتفاء بوجه ، فلا يكون إلا واحدا وهو الله جل جلاله ، على ذلك قامت البراهين ، وامتلأ بها كتاب الله ، كما أركزها فى الفطر السليمة ، وأقرها فى العقول المستقيمة واهب الكائنات ذواتها وصفاتها وحاجاتها ، تبارك وتعالى . إنك لا تنفك ترى أشخاصا من النبات والانسان والحيوان توجد بعد أن لم تكن ، وأشخاصا منها تنعدم بعد أن وجدت ، فالحكم عليها بالامكان لا يحتاج منك إلى تأمل ، وهو ما يسميه أهل العلم بالبديهى ، وأما ماشاهدت دوامه فى العوالم العلوية والسفلية كالكواكب والجبال ، فتستطيع أن تعرف نزولها عن ذروة الوجوب واستقرارها فى حضيض الامكان دائما أبدا ، متى عرفت هذه النظرية الواضحة ، وهى أن مادة هذه العوالم كلها يستحيل عليها أن تكون موجودة إلا وهى موصوفة بالبساطة ، أو التركيب والمراد بالبساطة فى هذا المقام عدم قبول الشىء للانقسام لصغر حجمه جد الصغر ، و بالتركيب كونه بحيث يقبل الانقسام ، سواء كانت أجزاؤه من عنصر واحد أو عناصر ومتصفة بالعلو المكانى كالكوكب أو التسفل كالأرض و بالطول والقصر و بالأضاءة والاظلام إلى غير ذلك من الصفات المتقابلة وكل صفة من هذه الصفات فهى معرضة لأن تزول وتحل محلها الصفة التى تقابلها ، وما كان عرضة للزوال فهو ممكن ، وما لا يتأتى وجوده إلا متصفا بالممكن فهو ممكن لامحالة ، ومن ذا الذى يقول وهو من أهل العقول إن المادة لا تتبدل صفاتها ؟ وهذه المعامل قائمة ، فكفاك بقبول هذه الصفات للتبدل والتحول برهانا ساطعا على إمكان هذه الصفات ، وما استحال

وجوده بدون الممكن كان ممكنا بداهة ، ومن أحكام الممكن أنه إذا وجد كان حادثا ، أى موجوداً بعد العدم ، إذ لولم يكن كذلك بل كان موجوداً بلا ابتداء لوجوده لخرج عن دائرة الامكان إلى الوجوب ، كيف وقد فرضناه ممكنا ، فكل ماتشخص وتعين من أفراد المادة فهو حادث بلا نزاع بين من يعتد به من كل من يحترم عقله ، ويزن أفكاره بالميزان المنطقى الصحيح ، و إذ قد بان لك أنك وما يدخل تحت حواسك منه ماهو ممكن بالبداهة وماهو ممكن بالنظر الصحيح ، أمكنك أن تلمح نور وجود واجب الوجود جل علاه بالنظر الجلى ، فان جميع الممكنات جملة وتفصيلا ليس وجودها من ذاتها ، و إلا وجب لها الوجود ، ولا من معدوم ، فان المعدوم فاقد الوجود ، وفاقد الشئ لايعطيه بالضرورة ، فلابد أن يكون واهب الوجود لها موجوداً سواها ، والموجود الذى ليس هو بممكن إنما هو واجب الوجود ، لايشك فى ذلك من أوتى حظاً من الحكمة ، ونال نصيبا من الفلسفة الصحيحة ، ومن أجل ذلك قالت الرسل للأمم عليهم وعلى أتباعهم الصلاة والسلام (أفى الله شك فاطر السموات والأرض ؟) وقال الخلاق العليم ينبه العقول إلى هذه القضية التى هى أوضح من الشمس ، وهى أن ترجح وجود الممكن على عدمه بلا موجود واجب وجوده محال ، قال تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون) فانظر إلى سياق القرآن هذا البرهان الساطع والدليل الناصع على هذا النظم العجيب ، والأسلوب الآخذ بألباب أولى النهى ، إلى جلية الحق ، روى مسلم فى صحيحه عن جبير بن مُطعِم أنه قدم المدينة وهو مشرك فاذا رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب بسورة الطور قال فأصغيت إلى قراءته حتى إذا بلغ قوله تعالى (أم خلقوا) الخ ، قال رضى الله عنه : كاد قلبى أن يطير ، وأدخل الله على الاسلام ، وأى أسلوب أعجب من هذا ؟ فقد سيق هذا البرهان لاعلى الطريقة التى تدع لنفس السامع مجالا فى التردد ، ولكن على السبيل التى تقهر النفس على قبول الحق قهراً

وتقسرها عن تلاعب الأوهام بها قسراً ، فان الآية قد جملت حدوث الحادثات – والحادث ممكن كما أسلفنا – بلا موجد يكون واجب الموجود من الأباطيل التى بطلانها فى حيز الظاهر المكشوف الذى ينكر على من قال به إنكارا . فان (أم) فى الآية الكريمة بمعنى بل، وهمزة الاستفهام ، وهو هنا إنكارى بمعنى النفى . ولله الحجة البالغة على خلقه ، فان الناس يعلمون أنهم ما كانوا شيئا مذكوراً ، ثم كانوا ووجود المعدوم بلاسبب موجود محال بداهةوكون المعدوم أوجد نفسه أظهر فى الاستحالة وأبعد فى الامتناع ، وواضح أن من لايملك وجود نفسه لايستطيع أن يعطى الوجود لسواه ، وعسى أن يكون قد بان لك إن شاء الله أن جميع الممكنات الموجودة سواء كانت ذوات أو صفات فقيرة كل الفقر فى جميع أطوارها ، وكل تقلباتها ، إلى من تعالى وجوده عن الامكان ، وجلت صفاته عن النقصان .

ولا يستخفنك أولئك الذين تعبدتهم المادة وأضاعت ظلمات الشهوات أفهامهم ، فانكروا الملك القدوس واجب الموجود . فليسوا من العلم الصحيح بهذه النظرية فى كثير ولا قليل . فانهم أخذوا على أنفسهم أنهم لايؤمنون إلا بما به يُحسون . وقصروا لفظ العلم على مايدرك بالحواس ، فأنى لهم وهذا شأنهم أن يظفروا بمعرفة من تعالى عن الحواس ، وتقدس عن مشابهة المادة والماديات التى انقطعوا إليها ، وماعرفوا إلا قليلا من ظواهرها ، على اتساع معاملهم ، وكثرة أبحاثهم . رأوا الكائنات المادية تجرى على نظم محكمة ، وقواعد مضبوطة يعبرون عنها بالنواميس . حتى إنك لتسمعهم يقولون : إن الطبيعة لاتلقى شيئاً جزافا ، فاستدلوا بهذا النظام العجيب المدهش لاساطين المفكرين على إنكار واضعه جل جلاله : ولو كان الجزاف سائداً فى الكون لكان للمنكر شىء من الشبهة ، أما وهم المعترفون بالنواميس ودقتها ، والنظم وإحكامها فى الكون كله . من أصغر شىء وأحقره ، إلى أكبر شىء وأعظمه ، فقد اندحرت كل شبهة ، وقام أسطع البراهين لا على وجود الخالق فحسب ، بل على كمال رحمته وحكمته

وعنايته ، إلى غير ذلك من صفات مجده الأعلى ، وكماله الأسنى ، ولهذا تسمعه سبحانه يقول : (صُنْعَ اللهِ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (ما تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) فوجود الممكنات ناطق بوجود واهبه ، وإكمال وجودها وتوابعه صارخ بجلال كماله ، وعظيم حكمته ، ومناد بشدة ظهوره وسطوع نوره ، حتى لهو عند أهل الأنظار السديدة ، والأفكار الرشيدة ، أظهر من الشمس ، وأبين من كل ما يُحس ، بل الكائنات كلها ظلمة وهو نورها ، فانها به كانت ، وبه تبقى ، فهو موجدها وقيومها ، فان وجود ذواتها وصفاتها لا يستفاد إلا منه وحده .

﴿ فصل ﴾

فان كنت ممن يصارعه الشك وتغالبه الأوهام ، من ناحية توقف بعض الممكنات على بعض ، كتوقف الولد على الوالد ، والنبات على البذر والحرث ، والعناصر الخاصة ، والبيئة المناسبة ، وتوقف الأمطار على ما يُصعد البخار من البحار ، وما إلى ذلك مما تتوقف عليه الأمطار ، وتوقف الكهرباء فى إظهارها ، والانتفاع بها على الأمور المبينة فى علم الطبيعة ، فتظن أن هذه الأمور المتوقف عليها هى أسباب عقلية لما بعدها ، فاعلم أنك جفوت العلم و نبوت عن الفلسفة الصحيحة ، ونكبت عن الجادة فى فهم الحقائق على ما هى عليه ؛ وتوضيح الأمر الذى يزول به الالتباس ، وينقطع به عن الناظر الوسواس ، أن تعلم أن المتوقف عليه على أقسام (فنها) ما يكون من قبيل الشروط العقلية كوجود الموصوفات ، يتوقف عليه وجود صفاتها القائمة بها (ومنها) ماهو من قبيل الشروط العادية ، ككون المُحَسّ بالبصر على صفات خاصة ونسبة خاصة ، من المبصر ، يتوقف عليه الأبصار توقف المشروط على شرطه العادى (ومنها) ما يكون من قبيل المُعد وهو ما يتوقف عليه وجود الشيء لكن ينعدم عند وجود الشيء ، كالخطوة

الأولى ، فان الخطوة الثانية يتوقف وجودها على وجود الأولى ، وليست شرطا ولا سببا فى وجود الثانية ، فان وجودها لا يكون إلا بعد عدم الأولى (ومنها) ماهوسبب فى الوجود ومفيض له ولا يصلح الممكن كائناما كان لهذا الفيض وتلك السببية ، فانه لذاته لا يقتضى الوجود بل إذا أفيض عليه فهو لا يملكه لنفسه ، فكيف يفيده غيره ، بل لا يصلح لهذه السببية إلا واجب الوجود العلى الأعلى، تقدس وتعالى ، فكل الممكنات التى يتوقف عليها كائن من الكائنات ، فهى من قبيل الشروط أوالمعدات ، وليست من سببية الوجود فى شىء ألبتة . فأتقن يارعاك الله هذا المقام حق إتقانه ، ولا يصدنك عن الامعان فيه كما ينبغى، من لا يصبر على تحقيق الحق ، فيجانب الهدى ويسير وراء الهوى ، وأنت لو دققت النظر لعرفت أنه ما أوقع الماديين فى هذه الهوة السحيقة ، والمهلكة العميقة التى هى إنكار رب العالمين ، إلا اعتقادهم السببية العقلية للوجود فيما ليس بسبب ، وإنما هو شرط أو معد ، فنسبوا الأمر إلى غير أهله ، ومنعوه أهله ، وهو الحق تبارك وتعالى الدائم الوجود وفياض الجود وتوابعه على كل موجود . ولتقرير هذه الحقيقة العليا جاء فى التنزيل (كل شىء هالك إلا وجهه) فالشىء فى هذه الآية هو الموجود ، وكل موجود سواه سبحانه فهو مملوك غير مالك ، ولا لوجوده حال اتصافه به . فهو من حيث ذاته هالك بالفعل . والكلية فى الآية على هذا التقرير لا يستثنى منها إلا ما استثنت الآية ، وهو الحق جلت ذاته ، وتعالت صفاته ، ولك أن تقول فى الآية : إن الهالك بمعنى القابل للهلاك و إن لم يقع هلاكه بالفعل، فتكون الآية مقررة لنفى وجوب الوجود عن جميع الكائنات : ماضيها وحاضرها وآتيها،ومثبتة لامكانها، فان ما وجب وجوده لا يقبل الزوال كما مر ، ولا يقبل الهلاك إلا الممكن ، وعلى هذا التقرير فعموم الآية على ماهو عليه فيها ، لا يخص منه إلا الواحد الوهاب ، وما بقى منها أبدا كالجنة والنار وأصحابهما ، فانما بقاؤه لارادة الخالق ذلك ، وليس لأنه لا يقبل الهلاك .

والكلام في الآية الكريمة مسوق لاثبات وحدانيته في الألوهية على طريقة برهانية معجزة في إيجازها كعادة القرآن في شأنه كله ، و بسط هذا المعنى الشريف أن يقال : كيف تدّعون مع الله إلها آخر وتدعونه ـ أى تعبدونه ـ من دونه ، والآله يجب له الكمال الأكمل ، والكائنات كلها واقعة من النقص في الدرك الأسفل فما رأيتم هلاكه بالفعل فهو ظاهر النقصان ، بديهى الامكان ، لا يحتاج في نفى الألوهية عنه إلى بيان ، وكل ماتظنون دوامه وتتخيلون له عزة البقاء ، فهو قابل للهلاك والفناء ، فأين هو مما تدّعون له ؟ فهو بمعزل عن القدم ، فان الموجود الذى له القدم يستحيل عليه العدم ، فانه لايكون قديما إلا إذا كان واجب الوجود لذاته ، وما للذات لايزول ، بل يمتنع زواله و يستحيل انتفاؤه ، فانه لازم من لوازم الماهية لذاتها وانتفاء لازم الماهية لذاتها يستلزم ألا تكون هذه الماهية هى نفسها ، لأنها لوكانت هى نفسها لتبعها هذا اللازم ، فلوصح انتفاؤه لصح أنها ليست هى إياها ، وهذا معنى قولهم إن انتفاء لازم الماهية يؤدى إلى سلب الشيء عن نفسه ، وكيف تسلب الذات عن ذاتها ، هذا مالا يعقل ، ولهذا تسمعهم يقولون سلب الشيء عن نفسه محال بالبداهة ، فكل شيء سواه هالك ، والهالك لا يكون إلها ، فلا إله إلا الله ، فأحينا اللهم عليها وتوفنا عليها ، واجعلها آخر صحائفنا بفضلك آمين.

و بعد فلا تحسبن أيها الطالب للحقائق أن هذا من الشعر أو الخطابة ، و إنما هى الحقيقة ناصعة ، والحكمة مبرهنة ، فان من الممكن ماهو موجود بالبداهة كما سبق غير مرة ، و وجود الممكن يعلن وجود الواجب قطعا ، ولا يهولنك ما يموه به أولئك القائلون على العلم كذبا وزورا ، إنه هداهم إلى إن المادة وحركتها لاابتداء لهما ، ومهما كان هذا الوجود كله الجارى على أتم نظام وحكمة .

فأى علم هذا الذى يفترون عليه هذا الضلال المبين ، أهو العلم التجربى الذى لا يعنون إلا إياه ، ولايدينون إلا له ؟ فمتى شهدوا ذلك ؟ و بأى تجربة وصلوا إلى هذا المعنى ؟ وأين أعمارهم وأعمار الجاحدين من أسلافهم في جنب عمر الأرض

التى هم عليها ، فضلا عن هذه المجموعات الشمسية ، والعوالم السماوية ، فما ظنك بهذه اللانهائية التى يدعونها للمادة ؟ أليس هذا هو الافتراء بعينه على هذا العلم المستغيث من ظلم المنتسبين إليه؟ بلى والله ، واسمع القرآن كيف يقول (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) أم هو العلم الذى استنبطته العقول من البراهين القاطعة ؟ فليت شعرى أى عقول هذه وقد اتفقت كلمة الأنظار الصحيحة منذ نشأتها إلى كهولتها على أن مالا زمه العدم كاجتماع النقيضين فهو ممتنع الوجود لذاته ، وأن مالا يلزمه لذاته وجود ولا عدم ، لا يرجح وجوده على عدمه إلا واجب الوجود لذاته ، ولم يكن ينكر واجب الوجود تعالى فيما غبر من الأزمنة البعيدة ، إلا أفراد معدودة من المندسين بين أهل العلم ، كانوا سخرية أممهم ، وضحكة من يسمع بهم من أهل الطبع السليم ، والنظر المنطقى القويم ، أما الآن فقد كثر هذا الصنف من أشباه الناس ، وحازوا لقب الفلاسفة والباحثين والعلماء والدكاترة والأستاذين ، فاغتر بهم من انخدع بالألقاب فكفر تقليدا كما كفر أولئك جهالة وعناداً (وَمَن أَضَلُّ مِمَّن اتبعَ هواه بغير هدى من الله) (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) — وبعد — فالذى ينبغى أن يستقر عليه عقدك ، و يحل المكان المكين من نفسك ، هو أن المادة لا يلزمها لذاتها الا الامكان لا وجود ولا عدم ، ولا حركة ولا سكون ، ولا بساطة ولا تركيب ، وما يشاهد فيها من ذلك فليس هو لها من ذاتها ؛ و إنما هو من فعل الذى أبدعها وأعطاها ماهى عليه من الصفات ، جل وجوده وتعالى جوده ، أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وليس عدم مشاهدة الشىء دليلا على عدمه ، فضلا عن أن يجعل برهانا على امتناعه ، وغاية مايدعيه الباحث فى المادة أنه لم يشاهد عدمها ولا سكون ما رآه منها بمنظاره ، فليكن صادقا فى هذه الدعوى ، فأما أن يستدل بذلك على عدم جواز السكون أو العدم عليها فذلك مالا يرضاه الانصاف ، وما تلفظه الفلسفة الصحيحة ، والبراهين القاطعة لفظ النواة ، وما تكشف للباحثين من النواميس الكونية مما

هدت إليه التجارب ودلت عليه الاختبارات ، فلا نزاع فيه للمؤمنين المحققين ، وهم يقولون به لا كما يقول أولئك العميان من أنها الفاعلة لهذا الوجود ، بل على أنها من قبيل المعدات والشروط العادية ، ومنها مايكون من قبيل الشروط العقلية والفاعل الحقيقى للوجود وتوابعه ، إنما هو الله وحده لاشريك له ، واجب الوجود وفياض الجود ، سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون به علوا كبيراً ، بل حقق بعض متأخريهم أن المادة تنعدم ، وأنه ثبت ذلك لديه بتجارب له أجراها ، ونحن فى غنى عن تصحيح هذا الرأى ، فان قوة البرهان على إمكان ماسوى الخلاق العليم تغنى الحكيم عن تجربة هذا المجرب

وربما تسامح بعض أهل العلم فسمى هذه النواميس أسبابا ، ولايعنى بها إلا مابينا لك ، وربما اغتر بعض المنسوبين إلى العلم بنسبة السببية إليها ، فظن استحالة وجود الخوارق فأنكر كرامات الأولياء ، وقد تجره العصبية لرأيه ، أو الجهالة بمرتبة هذه النواميس ، إلى محاولة إنكار كثير من معجزات الأنبياء عليهم جميعا وعلى آلهم الصلاة والسلام ، ومن آثار هذه الغلطة ما اجترأ عليه بعض البارزين فى أنظار العامة من أنه لامعجزة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا القرآن ، وقد يؤمنون ببعض تلك الآيات وينكرون انشقاق القمر ونحوه ، ويتأولون كتاب الله بما يرده العلم الصحيح لدى أهل التحقيق ، ويأباه النقل المستفيض عن الثقات ، بل المتواتر تواترا معنوياً عند المتبحرين فى العلم بطرق الأحاديث الشريفة ، والسيرة النبوية المنيفة ، على صاحبها وآله أزكى الصلاة والبركات : وقد أغنى سبحانه (وله الحمد كما هو أهله) عباده المستبصرين نخرق هذه النواميس المعروفة مراراً لاتحصى ، فأيد الأنبياء بالآيات ، وذكر كثيراً منها فى كتابه المجيد ، ولاسيما خاتم النبيين الذى لانبى بعده ﷺ ، حتى قال الامام أبو عبد الله الشافعى رضى الله عنه (ماأوتى نبى من الأنبياء آية إلا أوتى نبينا محمد ﷺ مثلها أو أكبر منها) فقيل له فأين مثل إحياء الموتى لعيسى عليه

الصلاة والسلام ؟ فقال (حنين الجذع له ﷺ ، أ كبر من ذلك فإن الميت كان له عهد بالحياة ، فإذا أحيي فقد رجع إلى حاله الأولى أما الخشبة فهى جماد لا عهد لها بالحياة أصلا والحنين من فروع الحياة . روى هذا عنه أو ما فى معناه الامام الحافظ البيهقى رضى الله عنه * وأكرم سبحانه أولياءه بالكرامات التى تجل عن العد ، وخلق عيسى من امرأة لم تخصب بيضتها بجرثومة ذكر ، كما خلق آدم أبا البشر من غير ذكر وأنثى ، بل من تراب خالطه ماء ، أليس كل هذا يصيح بلسان فصيح فى آذان أهل السمع الصحيح ألا إن ما عرفتم من النواميس وما لم تعرفوا إنما هو محكوم لبارئه لا حاكم عليه عز وجل وكيف يحكم الوضع على واضعه ، وتقضى الصنعة على صانعها وهو الذى له القدرة التى لا تحد والارادة النافذة التى لا يتعاصى عليها شيء فى دائرة الامكان التى لا يعلم مدى اتساعها الا الفعال لما يريد .

أيها الأخ المستبصر ليكن لك قلب أو ألق السمع وأنت شهيد إلى هذه المسألة كيف جلاها القرآن المجيد فى أعذب لفظ وأروع أسلوب ، وأوجز عبارة حيث يقول (إنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فيكون فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كل شيْءٍ) (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ له كن فيكون) (سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ له كُنْ فيكون) (بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يقول له كُنْ فَيكون) فانظر إلى لفظة إنَّما فى هذه الآيات الأربع التى تلوناها وفى غيرها مما لم نذكره فإنها ترشدك إلى أن مدار الايجاد للشيء على إرادته سبحانه له ، وتكوينه تعالى إياه ، فإذا الشيء كائن كما أراد وكون ، لا على ما تعارف الباحثون من النواميس التى يحكمون باستحالة مخالفتها وأن يكون شيء بدونها .

﴿ فصل ﴾

ومن العجيب أن تسمع هذا الحكم فى هذه الأزمان المظلمة من كثير من

المنتسبين للعلم ، فيلهجون بكلمة النّواميس والسنن الكونية ، وربما تلوا عليك قوله تعالى (وَلَنْ تَجِدَ لِسنَّةِ اللهِ تبْدِيلا) ولو شاؤا لعلموا أن السنة الالهية التى قضى سبحانه أنها لاتتبدّل ، إنما هى نصره لأنبيائه وأوليائه فى الدنيا والآخرة على أعدائه المعاندين لهم ، ولو قرأت ماقبل هذه الجملة الشريفة لصارحك بهذا المعنى وهى فى عدة مواضع من كتاب الله ، وكلها مسوقة لوعد رسول الله ﷺ وأتباعه بالنصر المبين والعز المكين ، ووعيد المعاندين بالخذلان المُهين ، والهزيمة المخزية على وفرة عددهم وكثرة عَددهم ، وصدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، فله الحمد كما ينبغى له . وأنت إذا أحكمت التدّبر فى هذا المقام أبصرت بوضوح أن السنة التى حكمت الآيات بأنها لاتبديل لها ، إنما هى خرق النواميس المعتادة بين العامة ، لأجل أولئك الخاصة ، بالمعجزات الظاهرة والكرامات الباهرة . هذا النبى المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام أرسله مولاه وحيداً فريداً وأهل الأرض يومئذ العرب والعجم فى المشارق والمغارب كلهم خصوم له ، ولما جاء به ، حريصون على إطفاء النور الذى جاء به بكل ما أوتوا من قوة ، فهل من النواميس العاديّة والسنن المألوفة والقواعد المتعارفة بين العامّة أن يُنصر هذا الوحيد الفريد على ذوى الدول الكبرى والصغرى ، هذا النصر الذى تحير فيه أساطين المتفلسفين ، وجعلوا يختلقون فى تعليله الأكاذيب ، كلا ثم كلا ، ماهى إلا السنة الالهية التى لن تجد لها تبديلا — اقرأ إن شئت أن تفهم (فَلَمّا جاءَهُم نَذيرٌ مازادَهُم إلاّ نُفوراً . استِكباراً فى الأرْضِ وَمكْرَ السَّىءِ وَلاَ يَحيقُ المكْرُ السَّىءُ إلاّ بأهْلِه ، فَهَلْ يَنْظرُونَ إلاّ سُنّةَ الأوَّلين فَلَنْ تَجِدَ لسنّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تجِدَ لسنّة الله تحويلا) فهذه ونظائرها من الآيات الكريمة تنادى أسارى النّواميس العاديّة أن لله سنة غير ما ألِفوا ممتازة بأنها لاينالها التبديل كما ينال السنن التى عرفوا ، وهى نصر المؤمنين الذين صدقوا وإن قلّوا ، وخذلان أعدائهم وإن كانوا أكثر من الرمل والحصى ، ولقد كان أعداؤه

عليه الصلاة والسلام يرمونه بالجنون حين يسمعونه يحدث أن الله ناصره على كسْرى وقيصر، ومن دونهما، لأنهم لا يعقلون تلك السنة الالٓهية التى لاتتبدل فالآيات دليل على خرق تلك النواميس المألوفة، فانظر كيف تجعل برهانا على عدمه والقلب إذا انتكس بزخرف هذه الحياة انعكس فيه المبنى فأخذ منه عكس المعنى (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنكَ رَحمةً إنَّكَ أنتَ الوَهَّابُ)

أرانى قد أطلت عليك فى هذا الفصل من هذا المختصر فمعذرة إليك أيها المستيقن، فان الجهل بهذه المسألة شديد الخطر جداً، ها أنت ذا ترى ألوف الألوف تتلوها أمثالها من الأجيال المتعاقبة من أهل النصرانية المزيفة، والمسيحية المفتراة المصطنعة على المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام، واليهود القائلين على مريم أمه بهتانا عظيما، ماأوقع هؤلاء وأولئك فيما وقعوا فيه إلا أنهم رأوه وُلد من أم بلا أب، فقال اليهود ـ حماه الله مما قالوا: هو ابن زِنْيَة، وقال النصارى الجاهلون هو ابن الله. تعالى وتقدس عما يقول الجاهلون به علواً كبيراً، ولو وقَر فى صدورهم أن الله يخلق ما يشاء لا يُقيّده عز وجل ناموس عادى وقانون مادى، لَما آمنوا بالباطل وكفروا بالحق، ولا وقعوا فى هذه الفِرى، وهل أنكر المنكرون ماجاء به النبيون من حشر الأجساد بأرواحها فى النشأة الأخرى إلا لجهلهم أن هذه النواميس المعتادة طريق غير لازمة، وسنة غير ملتزمة يجرى الفعل الالٓهى عليها وعلى ما شاء من سنن سواها، حسبما تقتضيه حكمته العلية وهو العلى الحكيم .

﴿ فصل ﴾

ربما هجس بخاطرك هذا السؤال: إذا كان الخالق على كل شىء قديرا وكانت النواميس المتعارفة غير لازمة للتكوين. وأن تكوين أى كائن كان لا يتوقف فى الحقيقة إلاعلى أن يريد ويفعل مايريد، فانه سبحانه هو وحده سبب الوجود والفاعل الحقيقى له، فما سر وضع هذه النواميس إذاً ؟ فاعلم أن جواب هذا السؤال يقذف

بك فى بحار أسرار القدر وهى عميقة مُغرقة ، والماهرون فى الغوص والسباحة إنما يفوزون منها بالدرر القريبة من السواحل ، وهى وإن كانت كثيرة لا تفى بها العبارات ، ولا تسعُها الدفاتر ، ولا تحويها إلا صدور الصدور من النبيين عليهم الصلاة والسلام ، والفائزين بالقِدح المعلّى من أكابر العارفين رضى الله عنهم فهى قليلة بالاضافة إلى ما فى علم الله تعالى — أخرج البخارى فى صحيحه عنه عليه الصلاة والسلام فى قصة موسى والخضر عليهما السلام أنه « بينما هما على ظهر السفينة إذ بَصُرا بعصفور نزل إلى البحر فنقر بمنقاره نَقرة أو نقرتين فقال الخضر لموسى هذا مثل ضربه الله لى ولك ، ما أخذ علمى وعلمك من علم الله تعالى إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر »

وأين علمنا من علم أكابر العارفين رضى الله عنهم ، بلهَ النبيين عليهم السلام ، ولكننا والفضل لله ولرسوله والعارفين من أتباعه عليه وعليهم الصلاة والسلام ، نضع فى يديك من مفاتيح هذه الكنوز والفتاح هو الله تعالى .

فاعلم أن بعض ما يتوقف عليه الممكن قد يكون من الشروط العقلية ، أو المِعدات العقلية ، ومثال الأول الموصوف مع الصفة ، والثانى الخطوة الأولى مع الثانية ، فاذا أريد إيجاد الألوان والحركات مثلا فلا بُد من خلق المتلَون والمتحرك قبلها ، وكذا الكلام فى الخطوة الثانية إذا أريد إيجادها فلابد من إحداث الأولى قبلها ، وليس ذلك لقصور فى الفاعل جل وعلا بل لنقص فى القابل ، فان وجود العرض بدون الجوهر مستحيل عقلا ، فلا توجد حركة غير قائمة بمتحرك ، ولا لون مستقلا عن متلون ولا علم غير قائم بعالم إلى سائر الصفات ، فلا بد لها من الموصوفات ، وتتنورُ كمالَ الفاعل مع نقص القابل بالعالم الكبير يلقى على صغار الطلبة من صغار العلوم لنقص فى قابليتهم لا لقصور عالميته وتعليمه

وكثيراً ماتكون الأمور المتوقف عليها من قبيل الشروط والمعدات العادية وهى جُل مايدرس فى علم الطبيعة وعلم الكيمياء وأكثر مايعتقد فيه العامة أنه

أسباب للحادث ، وأن الحادث يستحيل أن يوجد بدونه كالمشى على الماء والغوص فيه مدة طويلة ، والطيران فى الهواء بدون الآلة المعروفة وحدوث الأجنة بدون تلقيح ، إلى غير ذلك ، فكل ذلك فى دائرة الممكن ، غير أن العادة الالهية جارية فيه على نواميس خاصة تعرف بالتجارب ، و إنما كان ذلك كذلك فى هذه النشأة الدنيوية ليكون مظهراً عظيما من مظاهر الجود الالهى الذى لاحد له .

و بيانه أنه إذا جعلت قوانين لاستخراج مايحتاجه الانسان من خزائن الغيب الالهى ، ومخازن القدرة الربانية وهداهم الفضل الصمدانى بالتجارب إلى معرفتها ، كان وضع تلك القوانين من العزيز الحكيم ، و إجراء الأمر عليها فى الأعم الأغلب من الجواد الكريم ، بمنزلة وضع مفاتيح خزائن الكرم فى يد المحتاجين فبربك عليك هل رأيت أكرم من غنى حميد يضع مفاتيح خزائن النفائس التى لاتحصى فى أيدى الفقراء المحاويج ؟ فما استفتحوا فتح لهم ومن لم يفعل فلا يلومن إلا نفسه ، وليس ذلك إلا الرب الأكرم (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) فما بينك و بين أن يخرج الله لك من خيرات أرضه إلا أن تتبع أصول فن الفلاحة الذى هدى الله إليه العباد بالتجارب ، ثم كان بعدعلما مدونا وما بينك و بين زوال مانزل بك من الامراض إلا أن تسلك ماوضع الحكيم العليم لأزالتها من الأدوية التى هدى العباد إليها بالتمرن ، ثم كانت بعد ذلك علم الطب ، و إذا شئت أن يهبك الله من الحيوانات التى عندك ماتحتاجه أو تتجمل باقتنائه سلكت الطريق التى وضعها الله لاستنتاج الحيوان ، وكذلك إذا أردت الولد تزوجت وهلم فى كل ماتريده وضعت لك الطرق إلى استفاضته من العزيز الوهاب ، ولو أن الناس لم يجر الامر معهم على ما وصفنا لما عرفوا كيف يستفتحون خزائن الجود ، و يستمطرون سحائب الفضل ، فالحمد لله الذى دل بأحسانه على إحسانه ، فهذه واحدة أومأنا إليها إيماء ، وفى استقصائها عوض

عريض لا يحتمله هذا الوجيز ، وإليك أخرى وهو ربط هذه الكائنات بعضها ببعض من الكوكب الاعلى إلى المخلوقات الدنيا ، ليكون من هذا الربط الدليل الانور على وحدانية بارئها ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك . وشرح هذا على التفصيل يحوج إلى مجلد ضخم ، ولا أكون مبالغا إذا قلت إلى مجلدات ، والذى أستطيع أن أقوله لك هو أن هذا العالم من أفقه الاعلى إلى حضيضه الادنى ، على كثرة أنواعه ، وخروج أفراد الأنواع عن عد العادين ، قد وضع من الارتباط بحيث يكون كالجسم الواحد ، لكل جزء من أجزائه وظيفة لها دخل فى وظيفة المجموع كله ، ولتقريب هذا عليك أقول : أنت ترى الأرض يخرج منها النبات وتختبىء فى باطنها المعادن والمياه ، ويعيش عليها الانسان والحيوان ، وتحمل البحار وتجرى فيها الأنهار ، فلو أن الشمس زالت من الوجود لذهب هذا الخير كله أوجله ولو أمعنت فى التبصر لرأيت فى مجموع هذه المخلوقات تعاونا عاما يناجيك بوحدة تنطق بأفصح لسان : ألا إنى صنع لرب واحد ، فتبحر فى علم الكواكب وأوضاعها وفى علم أعضاء الانسان ووظائفها وحاجتها إلى ما حولها ، وفى علم الحيوان والنبات وعلم العناصر والكهرباء وانتفاع الكل بما فى الكل ثم افتح سمع قلبك فستسمع هذا النداء بوحدانية خالق هذه الأشياء ، وأنه لا يصلح للالوهية سواه ولا تليق هى إلا به جل علاه .

ودونك ثالثة وهى استثمار هذا النوع الانسانى المقصود من الخليقة كلها ، وكيف لا وقد خلق له كل شىء (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً) (وسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمٰوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) أى من إحسانه وجوده ، استثمار هذا النوع بمزيد احتياجه إلى كل شىء مما حوله وما فوقه ، وما تحته ، وفاقة بعضه إلى بعض ، فيرتقى من شعوره بحاجته إلى الكائنات إلى الاحساس بشدة فاقته إلى من أوجده وأوجدها ، ومكنه فيها وله سخرها ، فيتشرف بكمال التبتل إليه والانقياد لرسله ، فيسعد بذلك سعادة الأبد ، فانه إذا لم يستشعر

احتياجه كان كما قال جل قائلا (إنَّ الانسانَ لَيطغَى أنْ رآه استغنى) وما أروع ما قال القرآن الحكيم فى هذا المعنى وما أبلغه وأثراه لمن أجال فيه فكره وأحسن تدبره ، وذلك قوله تعالى (وَمِنْ كل شىْءٍ خلقنا زَوْجين لعلَّكم تذَكَّرونَ) فانظر كيف حذف مفعول التذكر لأن المتذكرين مختلفون جد الاختلاف فى استعداداتهم ومعارفهم ضيقاً وسعة ، وقلة وكثرة ، فلامحالة يتفاوتون فيما يتذكرون فمن متذكر باحتياج كل من الزوجين إلى الآخر فاقة بعض الممكنات إلى بعض ، فهى إلى الواجب الذى أوجدها أشد حاجة ، وأعظم فقراً ،ومن آخر يلمح النقص فى كل شىء لحاجته إلى زوجه فيتذكر غنى الخالق المطلق وانفراده بالكمال الأتم فيبصر من خلال زوجية الأشياء جلال وحدانية رب الأرض والسماء ، ومن ثالث ينظر إلى أن الشىء قد خلق له زوجه الذى يكمل به ، فيتذكر كمال رحمة هذا المنعم ، وإحسانه إلى كل شىء بكل شىء . إلى غير ذلك . وقد نبهناك بالقليل على الكثير ، فاستزد بحثاً يزدك الله علماً ، وليس ما كتب فى تفسير الذكر الحكيم على كثرته بمستوف درر بحاره التى لا يعلم مداها إلا الذى أنزله ، ولذلك روى عن أمير المؤمنين علي رضى الله عنه فى وصف القرآن العظيم : هو الذى لا تنتهى عجائبه ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلَق - أى لا يبلى - على كثرة الرد . أى التكرار له . والأثر أخرجه الترمذى وغيره ، وقد روى مرفوعا وموقوفا والأصح وقفه ولما فى ناموس التزاوج بين الأشياء من الأسرار والحكم التى عرفناك شيئاً منها ، مدح الله نفسه بخلق الأزواج كلها ، مستهلا بالتسبيح حثاً للعباد على استنباط ما أودع من كنوز الحكم فى جميل صُنعه ، وأنيق ترتيبه ، وبديع وضعه فقال تعالى : (سُبحَانَ الذى خلَقَ الأزْوَاجَ كلها مِمَّا تنبت الأرْض ومِنْ أنفسِهِم وَمِمَّا لا يَعلمونَ) وفى الآية الكريمة بدائع من آيات إعجاز القرآن فان الناس ما كانوا يعرفون التزاوج إلا فى أنفسهم وفى الحيوان ، وقليل من الأشجار ، والآية الشريفة تبدأ بأن الأزواج قد خلقت فى النبات

كله كما خلقت الأزواج من أنفس الانسان ، ولم يعرف ذلك للباحثين إلا بعد نزول القرآن بقرون ، فأصبح من المعروف الجلى أن فى النبات كله الأناث والذكران ، ولله ألطاف عجيبة فى تلقيح بعضها ببعض بالرياح والحشرات وغيرها ، تبارك من لا يحصى ثناؤه. ودلت الآية على أن الله قد جعل أزواجا مما لا يعلمه الناس حين ينزل القرآن ، وقد علم الباحثون من أهل هذا العصر فى علم الكهرباء أن فيها موجبا وسالبا بينهما ما بين النبات والحيوان من التزاوج والتجاذب ، وعليه يتم استنتاج منافع هذه الكهرباء التى ملأ الله بها هذا العالم من الخير بما لا يحصى. ولهذا الكتاب فى كل زمان آيات تتكشف على أهله ، وكلما تقدم الانسان فى بحث الكائنات واستبطن خفاياها ، قدم لهم القرآن عجائب آيات تلو آيات ، تشرح قوله تعالى (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض) وفى السفر الجليل الذى ألفه صاحب السعادة النطاسى البارع عبد العزيز باشا إسماعيل فى معجزات القرآن الطبية أصدق شاهد على ما نقول ، وكذلك ما كتبه سواه من إخوانه ويكتبونه فى الصحائف اليومية والمجلات الأسبوعية ، وغيرهم من المهرة فى فنون أخرى وما يكون بعد ذلك مما لا يعلمه إلا الله هو من تحقيق قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فلله الحجة البالغة بهذا الكتاب العزيز الذى أنزله معجزة كبرى لنبيه المصطفى ﷺ باقية ما بقيت الدنيا ، تمضى الأعصر بعد الاعصر وهذه المعجزة باقية على جدتها ، وفى الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام « ما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » يعنى عليه الصلاة والسلام ما من نبى إلا أعطاه الله من الآيات ما به تقوم الحجة على أمته ، ويهدى الله به منهم من يشاء ، كقلب العصا حية . وغيره لموسى ، وكابراء الأكمه ، وإحياء الموتى لعيسى ، وإنما كانت الآية التى خصصت بها من بينهم ، هذا الكتاب المعجز بأسلوبه ونظمه وجمعه لعلوم الأولين

والآخرين ، وقصه من أنباء ما قد سبق ، وإنبائه بأخبار ما بعده ، إلى غير ذلك من وجوه إعجازه ، فقد تكفل الله بحفظه ، فهو باق على الدهر ، يُحاجّ كل جيل ويقارع كل قبيل ، وليس حادثةً ينقضي شخصها ويبقى ذكرها ، فلهذا رجا عليه الصلاة والسلام أن يكون أكثر النبيين تابعاً يوم القيامة لبقاء حجته الكبرى ماثلة في كل زمان يأتي بعده بعينها وشخصها ، لا بذكرها وخبرها ، فلا يزال في كل زمان يظهر لهذا القرآن آيات لم يُشرق نورها إلا على أهله ، وقد صنفت كتب كثيرة في بيان وجوه إعجاز القرآن ، ومن أحدثها عهداً وأجمعها فائدة ، وأجلها بياناً ، وأوضحها برهاناً كتاب إعجاز القرآن لدرة تاج الأدب ، مصطفى صادق الرافعي ، تغمده الله برحمته وأفاض عليه وابل إحسانه ، وجزاه على ما قام به من هذه الخدمة الكبرى خير جزاء ، وتالله ما بالغ سعد باشا زغلول رحمه الله تعالى إذ قال في تقريظ هذا الكتاب « كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » فنصيحتي لكل مسلم أن يقرأ هذا الكتاب ويكرر القراءة ، ويطيل فيه الإمعان والتأمل ، وقد تفضل بطبعه ملك مصر الراحل فؤاد الأول أسبغ الله عليه رحمته ، وقد أوشكت نسخ الطبعة الثالثة أن تنفد فنرجو أن يوفق الله لإعادة طبعه الملك المعظم فاروق الأول ، أطال الله بقاءه في عافية ، أسوة بوالده الماجد ، وهو بحمد الله محب للخير مسارع إلى بذله ، أدام الله توفيقه .

﴿ فصل ﴾

قد بان لك إن شاء الله مما مر بك في الفصول السابقة ، أن البرهان القاطع ناطق بأن ما وجد ويوجد من الذوات والصفات لا يهبه الوجود وتوابعه إلا واجب الوجود لذاته ، العلي بسلطانه على كل موجود ، فجوده سبحانه هو السبب الحقيقي وهو جل وعلا الفاعل المتصرف والموجد ، فكل شيء سواه أطلق عليه العلماء اسم السبب أو العلة فلا يريدون به إلا السنن التي جرت العادة الالهية أن يخلق

الفعل عقب حصولها ، ولذلك تسمعهم يقولون إنها أسباب عادية . قال المولى سعد الدين التفتازاني في مباحث العلة آخر المقصد الثاني من المقاصد له رضي الله عنه مانصه (تنبيه) لما كان الموجد عندنا هو الله تعالى وحده كان معنى العلة من الممكنات ماجرت العادة بخلق الشيء عقيبه . وقد ظهر لك أيضا أن لله تعالى أن يخرق هذه العوائد متى شاء فلا يأتي بالمسببات عقب تلك الأسباب كتخلف الأحراق عن النار كما فعله مع خليله إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) أو يأتي بالمسببات بدون هذه الأسباب المعتادة ، كما خلق عيسى من مريم من غير أن يمسها بشر ، فانه الفعال لما يريد ، يخلق مايشاء سبحانه ، وقد سلف لك أيضا أن جريان العادة الالهية على هذا النحو المتعارف إنما هو لحكم بالغة اقتضاها جوده جل شأنه ، وقد سبقت الاشارة إلى بعضها ، فينبغي أن تستفيد من كل هذا أمورا – الأول – دوام استفتاحك لجوده بالأخذ في الأسباب التي جرت عادته أن يعطيك بعدها مسبباتها مع اعتماد قلبك عليه لاعليها فان ترك تلك الأسباب حماقة منك ، والاعتماد عليها جهالة منك بالمعطي الحقيقي ، ولهذا تسمعهم يقولون : الأخذ بالاسباب لاينافي التوكل ، قال ﷺ لمن سأله : أأعقل ناقتي أم أتوكل على الله ؟ « اعقلها وتوكل » وظاهر عليه الصلاة والسلام في أحد بين درعين ، واعتقل الرمح ، وتقلد السيف ، وأخذ الزاد وأمر بأخذه في الاسفار ﷺ ، و بذلك جاء كتاب الله وشرعت صلاة الخوف – الثاني – أن لاتيأس من فضله إذا تعسرت عليك هذه الأسباب ، وأن تقبل عليه بكل قلبك فله تعالى بالمتوكلين عليه العاكفين ببابه من الالطاف مالايحصيه كتاب ، ولا يحصره حساب – الثالث – أن لاتندم إذا أخذت في الاسباب ولم يحصل ماأردت بل املأ قلبك بأن اختياره لك في المنع خير لك من اختيارك في العطاء . وكل أمر من هذه الأمور الثلاثة يحتاج تمام بيانه إلى مؤلف مستقل ، لكنا في هذه

الرسالة إنما نشير إشارة ونلمع إلماعا ، فعليك بكتب القوم .

مطلب في إبطال الاعتذار بالقدر ـ وقد أوجز وأعجز رسول الله ﷺ في بيان هذه المسألة حيث قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز و إذا فاتك شئ فقل قدر الله وما شاء فعل ، ولاتقل لوفان لوتفتح عمل الشيطان » أخرجه مسلم وغيره ، وأخرجه البخارى في صحيحه مرفوعا : « سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدا الجنة عمله قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه و رحمة » ولما قيل له عليه الصلاة والسلام : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : « لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له » و رضى الله عن هؤلاء الأصحاب الكرام ما أغزرهم فقها وأعمقهم علما !! فقد قال قائلهم حين سمعوا هذا : ما كنا إذ سمعنا هذا الحديث بأشد اجتهاداً منا قبل أن نسمعه . فهكذا يكون الفقه في الدين ، فان من علم أن أخذه في الطاعة ومواظبته عليها علامة أنه سبقت له من الله الحسنى لم يدخر وسعا في التمسك بها ولم يأل جهدا في البعد عما ينافيها ، ومن تيقن أن أسباب الخيرات هي من القدر سارع إليها . وقد ثبت أن قائلا قال يارسول الله أليس المرض من قدر الله ؟ قال « بلى » قال ففيم الدواء ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « الدواء من قدر الله » فالكسل عما وضع الله من السنن احتجاجا بالقدر جهل بما يقتضيه اعتقاد القدر وفهمه كما ينبغى ، والتهالك على الأسباب بدون اعتماد على خالقها وخالق مسبباتها مالك الأمر كله ضعف في اليقين ، وتباعد عما يقتضيه العلم بجلال العزيز الحكيم ـ و بعد ـ فالمسألة طويلة الذيل بعيدة الغور ، والذى أنصح به لكل مؤمن أن يعلم أن القدر سابق وأن ما كتب له أوعليه غير معلوم له ، وأن أسباب الخير والشر في الدنيا والآخرة قد أرشده الله إليها وأعلمه بها على لسان الرسول الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، وماوضعه في العقول ، وأن الخير قضى بسببه والشر يجئ بطريقه ، فليشمر في السعى في طرق الخير التي أمر بها ، وليتباعد عن سبل

الشر التي نهي عنها ، معتمداً في إنجاح مساعيه كلها على فضل الله وجوده ، وهو سبحانه لايخيب أمل آمل ، ولا يرد دعاء سائل ، وإذا وفق لطاعة فليذكر نفسه بأن الفضل كله لله حتى يزيل نور هذا الايمان ظلمات ماعسى أن تتدنس به النفس من عجب بعمل أو منّ به ، وليكرر هذه الذكرى حتى يطفئ ماؤها المعذب نيران هذه الرعونات النفسانية ، وإذا وقعت منه معصية فليذكر قصوره وتقصيره ، وليعترف لربه من صميم قلبه بأنه مسيء غالط ، وليسارع إلى المتاب ولا يحتج لنفسه بما سبق من قدر ربه ، فان حسن الاعتذار للواحد الغفار ، وسرعة المتاب من الاوزار هو سبيل المصطفين الأخيار من النبيين والصديقين وأهل البصائر أجمعين . انظر إلى نبي الله أبي البشر آدم عليه الصلاة والسلام حين قال الله له ولزوجه (ألم أنهكما) هل احتجا لأنفسهما ؟ حاشاهما بل قالا (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية . وقال رسول الله نوح عليه الصلاة والسلام (رب اغفرلي ولوالدي) وقال الخليل ﷺ (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) وقال الكليم (رب إني ظلمت نفسي فاغفرلي) وصح عن سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام « ياأيها الناس استغفروا الله وتوبوا إليه فوالله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين — وفي رواية — أكثر من سبعين مرة » وقال الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه يارسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي ، فقال عليه الصلاة والسلام « قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » أخرجه البخاري. ومَن الناس إلا هؤلاء السادة ؟ ففيهم للمؤمن خير أسوة. أما التمسح بالقدر عند المعصية فهو طريق إبليس اللعين ألا تراه قال (رب بما أغويتني) الآية .

فان قلت : أليس قد احتج أبونا آدم بالقدر حين لامه الكليم كما أخرجه البخاري ؟ قلنا : بلى ولكن كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام في دار التشريف لافي دار التكليف وبعد صدق المتاب والاعتراف للملك الوهاب لامع الاصرار

على مخالفة الواحد القهار، والأديب اللبيب يعطى كل مقام حقه . وللكلام بسط ليس هـذا موضعه . ولا يظنن ظان أن اعترافه بذنبه لمولاه وتوبته إليه مع سبق قدره سبحانه هو محض مجاملة منه لربه ، وإنما هو الحق الذى يجب أن يعترف به لمولاه من صميم فؤاده ، فانه رفع المؤاخذة عن عبده حين يكون العبد لا دخل له فى الذنب . كأن كان مجنونا أو مكرها ، أو لا يزال فى ضعف الصبا لم يبلغ الحنث ألا تراهم أجمعوا على أن شروط التكليف : البلوغ والعقل . وأن شرط المؤاخذة الاختيار ، أمّا وقد أعطاه الشعور وخلق فيه الارادة والقدرة ، وأعطاه المكنة والاستطاعة ، وعرفه كيف الاحتيال لدفع الشر والامتناع من الشيطان ، فقصر فيما أمر فقد توجهت عليه المسئولية ، وقد فتح له باب المتاب ووعده بالمغفرة عند الاستغفار ، فاذا أطاع هواه ولم يفعل فلا يلومن إلا نفسه .

ـ فان قلت ـ ألا جعل الكل موفقين ؟ قلنا : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإذا قلت فى المخلوقين : ماعلى المحسنين من سبيل ، أفلا يكون ذلك منك فى خالقك أولى ؟ وبك أحرى ؟ ولله أسرار فى تقسيم الخلق إلى ما انقسموا إليه من طائع وعاص ، ومؤمن وكافر ، وغنى وفقير ، وصحيح ومريض ، وعزيز وذليل ، ورُعاة ورعايا ، إلى غير ذلك ، لا يحيط بها إلا هو جل جلاله ، ولو انكشف بعضها فضلا عن جميعها لعلم من كوشف أن الحق كله لله ، وضل عنه كل مايحتج به لنفسه ، ولكن دون أسرار القدر حُجب ، فتب مستبصراً ، وسلم لربك مخلصاً ، وخذ حذرك مما يُغضبه ، واتّهم عقلك فيما يحاوله ، فمقام الألوهية فى اتساع العلم وعلو الحكمة ، وكمال القدس ، وإحاطة الرحمة ، أجلّ من أن تحيط بمبادىء كماله العقول الكبرى وإن اتّسعت ، ولهـذا اختصر لنا الطريق وقيل لنا (لايُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) ولاتسمح هذه العجالة بأكثر من ذلك ،

﴿ فصل ﴾

(فى فضل الايمان بالغيب وحكمته ، وعظم نقص من لم يتصف به)

اعلم أن السير وراء الوهم واتباع الوساوس مضلّة عظيمة لهذا النوع البشرى وإنما سبيل النجاة من النقائص ، والفوز بالكمالات فى العلم والعمل هو إتيان البيوت من أبوابها واستفتاح الخزائن بالمفاتيح التى وضع الله لها . فعلم المادة والماديات يستفاد من الحواس والتجارب ، وعلم ما وراء المادة وما علا عن خصائصها يستفاد بالبراهين العقلية الصحيحة المنطقية ، والأدلة النقلية الثابتة عن المعصوم ، ولكل حاسة من الحواس وظيفة فى الافادة لا تتعداها ، فالألوان والأضواء والأشكال تعرف بحاسة البصر . والأصوات وصفاتها تدرك بحاسة السمع ، وهكذا فى سائر الحواس . فمن حاول أن يعرف اللون بالسمع أوالصوت بالبصر انقضى عمره ولم يعرف من ذلك شيئا . ومن طلب معرفة من تعالى عن أن يدرك بألطف الحواس فضلا عن كثيفها من طريق هذه الاحساسات ، ولم يسلك طريق البرهان ، ورفض الايمان إلا بما يرى أو يلمس ، فقد انحط عن درجة الانسانية العليا ، إلى دركة البهيمية السفلى ، وفى هؤلاء يقول القرآن الحكيم (لقدْ خلقْنا الإنسانَ فى أحْسَنِ تقْويم . ثمّ رددْناه أسفلَ سافلين) فقول من يدعى الثقافة : أنا لا أصدق بالله وملائكته لأن هذا شيء ما رأيته ، ولا يدخل تحت التجارب فى المعامل ، هو قول (كسرابٍ بقيعةٍ يحْسبُه الظّمآن ماءً حتى إذا جاءهُ لمْ يجدْه شيئاً) وليس يبتنى على حكمةٍ ، ولا يمتُّ إلى فلسفة صحيحة ، وإنما هو محض العناد للحقائق وصرف الجحود للحق تعمداً ، وهو كقول من يقول : أنا لا أصدق بوجود الأصوات لأن عينى لاتراها ، ولا أومن بالألوان والأشكال لأن سمعى لا يحس بها ، فمثل هذا القائل يعتبر فى نظر العقلاء معتلا مختلا ، والحكيم معه على إحدى سبيلين . إما أن يهمله إهمال العالم إلقاء الدرس على البهائم لأنها ليست بأهل أن تفهمه ، أو يتنزل إلى محادثته لئلا يغتر به غيره من الذين لم يتلوثوا بجراثيم مرضه ، فيقول له : ليس بالسمع تدرك الألوان ولا بالبصر تدرك الأصوات ، حتى يكون ذلك دليلا على إنكارها ، وكذلك

الأمر تماماً فيمن قال : لا أومن بالله لأنه لا تدركه حاسة من حواسنا ، فيقال له إن ربك فوق محيط هذه المحسات كلها ، وقد وهبك قوة أخرى هى الحاكمة على تلك المدركات ، وهى العقل ، وبها تعرف ما علا عن الحواس. وأنت لا تشك فى أنك عاقل ، فهل تدرك عقلك بأحدى هذه الحواس ؟ كلا ، وأنت تفرح وتحزن وتلتذ وتتألم ، وتجوع وتعطش ، أفتدرك هـذه الصفات أو واحـدة منها بهذه الحواس التى تأبى أن تؤمن بمـا لم تدركه بها ؟ كلا ثم كلا ، وكما أن قوة البصر عنـد الظلمة لا تـدرك شيئا مما تقع عليـه فاذا جاء الضياء أدركت ، كذلك قوة العقـل إذا تكاثرت عليها الشهوات والأوهام تعطلت عن أداء وظيفتها ، فاذا استعملْت مصباح البرهان واستضأْت بضياء القرآن تكَشَّفَ لك الحق جلياء وقام لك البرهان على الرحمن مقام العيان للأكوان ، فآمنت بالغيب مستبصرا وانبثقت عن هذا الايمـان الأعمال الصالحـة تترا ، وكنت حينئذ قد جانبت الاعتساف ، وحَيِيتَ بروح الأنصاف ، وتحليت بفضائل أفاضل نوعك ، وصح لك أن تدخل فى الذين استثناهم الله تعالى من الرَّد إلى أسفل سافلين حيث قال (إلا الَّذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فلهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ) فالايمان بالحق المقدس عن المادَّةِ وصفاتها انصياعاً لما سطع من البرهان وإن كان تصـديقاً بما لم تره عين أو تلمسـه يد ليس جرْيا وراء الأوهـام ولا دخولا فى عـداد العوام بل هو فضيلة الحكيم المنصف وميزة الانسان الذى تسنَّمَ ذرْوَةَ الشرف ، وخصيصةُ أهل الثقافة الحقَّة غير المزيَّفة ، والخلو من هذا الايمان عياذاً بالله تعالى مراغمة للأدلة وانحرافا عن الحجج الحقة ، ليس إلا انحدارا إلى منزلة الانعام ، وإطفاء لنور وظيفة القوة العـاقلة ، التى هى أكبر مميزات الانسان ، وانغماسـا فى حمأة الأوهام وخروجا عن حـدود العلم الصحيح ، وغرقا فى الجهـل الذى هو أقبح قبيح . ولقطع أعذار المتعللين ترى القرآن العظيم مملوءاً بأسـطع البراهين على مايدعو إليه الخلق أجمعين فكان للعقول الكاملة بمنزلة النور للباصرة ، وللمجموعة

البشرية بمنزلة الأرواح للأجسام ، ولهـذا سماه الله نورا فى قوله (فآمِنُوا بالله ورَسُولِهِ والنُّورِ الَّذى أنزلنا) وصدق الله ، فان هذا القرآن يخاطب منك عقلك ويستنهض فكرك ، ولا يذكر الدعوى حتى يردفها بالبرهان الأعلى ، وينوع الأدلة ويورد الحجج بالأساليب الرائعة ، التى يخر المنطق الصحيح أمامها ساجدا إعظاما لشأنها ، وإكباراً لأمرها ، وسماه روحا فى قوله سبحانه (وَكذلِكَ أوْحينَا إليك رُوحاً مِنْ أمرِنا) فان به الحياة السعيدة لهذا المجتمع البشرى كله ما أخذوا بآدابه وتمسكوا بأهـدابه . وللخبير المنصف على ذلك أصـدق الشواهد إذا كان مطلعا على حال الأمة الاسلاميـة أيام اقتدائها بكتابها وتمسكها بدينهـا ، ومن عجيب عناية هـذا الكتاب العزيز بتثقيف العقول بالبرهان عقب البرهان ، وإخراج الناس من حيز العامة إلى مقام الخاصة بالأتيان بالدليل بعد الدليـل ، والسير فى طريق البرهنة ، من عجيب عنايته بذلك أنه لم يكتف بسوق البراهين فيما هو من باب الألهيات والنبوات ، والبعث بعد الموت ، بل ساق الدليل فيما هو من باب الآداب . انظر إلى قوله (ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئة) إلى قـوله (فإذا الذى بينكَ وَبينهُ عداوَة كأنه ولىٌّ حميم) وانظر إلى تعقيب ذلك بذكر دواء داء الغضب ، وتحلية مُرِّ هذا الدواء بحلو وعده الصادق الجميل ، حيث يقول (وما يُلقَّاها إلا الذينَ صَبرُوا وَما يُلقَّاها إلا ذو حَظٍّ عَظيم) بل سلك طريق الاستدلال فيما أخبرهم به من كذب خلطائهم من أهل النفاق فى الاعتذار حيث قال (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة) ومن المعجز المدهش فى أسلوب هذا الكتاب لمن أنعم فيـه مستبصراً أنه يسوق غوامض المعانى الالهيـة وعوالى الصفات الربانية وسواطع الأدلة الحكمية على طريق لا يمكن للبليغ مهما علا فى البلاغة كعبه أن يسلكها فانها أسلوب ينتفع به العامة والخاصة ، يأخذ منه العـامة قسطا من العلم لا بأس به ، ولا يشوش عليهم مداركهم . وينال منه الخاصة لب الحكمة ، وخالص المعنى العلى ، وكذلك دأبه فى علوم الكائنـات التى مست

حاجة البشر إلى بثها . وليس هـذا المختصر بموضع تفصيل ذلك ، ويتير لك شيئاً من ذلك ما كتبه الطبيب الشهير عبد العزيز باشا إسماعيل فى مجلة الأزهر تحت عنوان (الاسلام والطب الحديث) وما كتبه الطبيب المعروف الحاج محمد وصفى فى مجلة هدى الاسلام وغيرهما من الأفاضل الباحثين عن أسرار هذا الكتاب العزيز قديما وحديثا ، ولهذا افتتح الله مدائح المتقين بوصفهم بالايمان بالغيب ، ولم يقبل الايمان حين المكاشفة إذا بلغت الروح الحلقوم ، وهجم العيان عليها ، وحين نزول البأس بالمكذبين من المنذرين (وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بل اتسعت العناية الألهية فى هذا القرآن المجيد فجمل فى براهينه لمن يريد أن يستبصر براهين تشبه براهين العلوم التجريبية كعلم الطبيعة والكيمياء والكهرباء ، تمام المشابهة . ومن درس تلك الكتب فهم ما أقول . ومن لم يقرأ فيها فانى أحدثه عنها .

تجد الكتاب قبل أن يسوق لك النظرية الكلية يذكر لك الجزئيات التجريبية لأول من تكشفت عليه مساتير هذا العلم فمن بعدهم ، فيقول وضع العالم فلان السائل الفلانى فى جهاز شكله كذا ، وصب عليه من الحمض الفلانى فصار كذا ، فينتج من ذلك نظرية كذا ثم جاء بعده فلان ففعل كذا وهلم . وحاصل ذلك الرجوع بطالب العلم إلى التجارب المشاهدة ، واستخلاص النتائج منها قواعد كلية ، وربما أتى صاحب الكتاب بالنظرية فأتبعها بالتمرينات الجزئية ، وعزاها إلى مجربيها . وكذلك أنزل هذا القرآن على خاتم النبيين عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام إلى هذه الأمة الأخيرة ، وقدخلت من قبلها أمم ، وأرسلت إليهم أنبياء ، وقد خلت لله فيهم سنن ، فاذا أنت ألقيت السمع وأنت شهيد إلى هذا الكتاب المجيد ،وجدته يأتيك بالعلوم العليا ويدعمها بالبراهين الآخذة بلب كل حكيم ، ويردف ذلك بقصص الأمم الماضية ، وشرح السنن الخالية التى كانت منه مع المكذبين والمصدقين ، التى شوهدت ثم حفظها التاريخ وشاع خبرها

عند المخاطبين أو أهل العلم من جيرانهم ، و يعد أو يوعد ، و يبشر أو ينذر ، ثم يتبع ذلك بالجزئية التى شاهدتها الأمة أيام التنزيل ، أليس هذا هو الذى يسمونه اليوم بالطرق الحديثة ، والبراهين العلمية ، سلكه القرآن قبل أن توجد هذه الأسماء وواضعوها ؟ اقرأ إن شئت (قُلْ للذينَ كفرُوا ستُغْلَبون) الآية ، ثم اتل تاليتها فاذا هى تقول (قَدْ كانَ لكُمْ آيةٌ فى فئتين الْتقتا) يعنى المسلمين والكافرين فى غزاة بدر وقد شاهدها المخاطبون ، نصر المؤمنون غير ذوى عدد ولا عُدد على الكثرة ذات العدد والعُدد الكثيرة وهم لا يعرفون لذلك سببا إلا نصر الله وتأييده ، ولذلك واجههم بقوله (والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) واقرأ قوله تعالى (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه) أى مصالحة الحديبية (وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين) ومن هذا القبيل قوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) (ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين) (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم) إلى قوله (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وأما قص أخبار الأولين بعد ذكر البراهين المنطقية أو قبلها أو أثناءها فهو فى القرآن كثير جداً مُجملا تارة ومفصلا أخرى ، على حسب ما تقتضيه مقامات الخطاب ، فانظر فى سورة الأعراف كيف أقام البرهان على وحدانيته وكمال قدرته فى قوله : (إنَّ ربكُمُ اللهُ الَّذِى خلَقَ السموات والأرضَ) الآيات إلى قوله : (كذلك نُصرِّفُ الآياتِ لقوم يشكرون) ثم أتبع ذلك بسننه الجزئية التى شوهدت وشاع خبرها عند أهل العلم من أهل الكتاب وكثير من العرب فقال تعالى : (لقدْ أرْسلنا نوحاً إلى قومه) القصة إلى آخرها (وإلى عادٍ أخاهم هوداً — وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً) إلى آخره (ولوطا إذْ قال لقومه) الآيات (وإلى مدينَ أخاهم شُعيْباً) إلى أن قال (تلك القُرى نقُصُّ عليك مِنْ أنْبائها) مشيراً إلى أن القرى معروفة لهم ، ثم ساق قصة موسى وفرعون وبنى إسرائيل وما فيها من العبر . وقال فى

سورة الحجر بعد ما ساق الأدلة الكونية (ونَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ) إلى أن ذكر ما أجراه من النقم على المكذبين من قوم لوط وأصحاب الأيكة ، حتى قال (وإنهما لبإمامٍ مبينٍ) أى طريق مقصود مسلوك بين عند المخاطبين . وقال فى سورة أخرى فى آخر ذكر قوم لوط (وإنكم لتمرُّون عليهم مُصْبِحينَ وبالليلِ أفلا تعقلونَ) وقال فى سورة العنكبوت فى تلك القرى التى أخربها الله بذنوب أهلها وعنادهم للحق الذى جاءت به رسله (ولقد تركْنا مِنها آيةً بيِّنةً لقومٍ يعقلونَ) وكذلك الأمر فى سورة يونس وسورة هود عليهما السلام بدأ الأولى بسواطع البراهين على وحدانيته فى الألوهية ورسالة رسوله وما اتصل بذلك وبشر وأنذر ، ثم أردف هذا كله بقوله (واتْلُ عليهم نبأ نوحٍ) ومضى فى قَصَص القِصص ، وكذلك فى السورة الثانية سرَد الأدلة الكلية ثم أتبعها بالحوادث الجزئية .

ومن هداية القرآن البديعة أنه لم يذكر قصص الأمم النائية الواقعة فى المجاهيل ورسلهم حتى لا يكون حوالة على مجهول مطلق للمخاطبين ، بل ذكر خبر آباء البشر آدم وإدريس ونوح ، وخبر أبى من بعدَه من النبيين إبراهيم وقريبه لوط والمرسلين إلى العرب . وبنى عمهم من بنى إسرائيل ، ليكون العلم المتوارث بهم ولو إجمالا قائما مقام المشاهدة ، ولم يُهمل الاشارة إلى من لم يذكرهم من الرسل ، ألا تراه يقول : (ولقدْ أرْسلنا رُسلا منْ قبلك منهمْ منْ قصصنْا عليكَ ومِنهمْ منْ لمْ نقصُصْ عليك) ولا سبيل إلى استقصاء شواهد ذلك فى هذا المؤلف الوجيز —

والخلاصة أن من صدق فى طلب الحق وجد فى هذا القرآن المجيد بغيته من أى فريق كان ، من فريق التعويل على البرهان الكلى ، أو من قبيل الذين لا يعولون إلا على الجزئيات التى شوهدت ، أو الصنف الذين تكفيهم الموعظة ولهذا أقسم الله به فقال (والقرآن الحكيم) ولفت أنظار عباده إلى ما فيه من

الأوصاف العليا ، والمعانى الرفيعة ، والمتع العقلية المتنوعة ، فقال : (يا أيُّها الناس قد جاءتكم موعظةٌ منْ ربكم وشفاءٌ لِما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنينَ) .

﴿ تنوير ﴾

إليك سورة كريمة من سور هذا الكتاب العزيز ليس فيها إلا هذا الصنف من البراهين الحسية والأدلة التى شوهدت حقائقها فى العوالم الخارجية وهى التى يطلق عليها الحكماويون اليوم الأدلة العلمية ، وهى سورة القمر ، ابتدأها الله تعالى بآية سماوية كبرى ، لا يحوم حول سناها الوضاء غبش من شك ، ولا غلس من شبهة ، قد رآها المخاطبون بأعينهم ، وشاهدوا ضياءها بأنفسهم ، فى مجمع ينتظم أكابر المعاندين الجاحدين ، وخلص المؤمنين المنصفين ، وهى انشقاق القمر فى ليلة أضحيان .

أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما وغيرهما من المحدثين عن عدة من أصحاب رسول الله ﷺ «أن كفار أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، وأن تكون هذه الآية انشقاق القمر ، فدعا ربه فانشق القمر فلقتين وهم ينظرون ، فقال ﷺ : أيها الناس اشهدوا » ثم عاد كما كان بعد ما اتضحت آية القمر وضوح الشمس . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم . فقال قائلون منهم إن محمداً سحر أعيننا ، وقال آخرون لئن استطاع محمد أن يسحر مجلسنا فلن يستطيع أن يسحر المارة من أهل الآفاق خارج مكة فارقبوهم فسلوهم . فتحروا فسألوا المارة فى تلك الساعة أرأوا فى القمر شيئا وهم يمشون على نوره ؟ فاتفقت كلمة الكل أنهم رأوا القمر قد انشق بفرقتين ، ثم عاد كما كان ، فقال الذين لجوا فى عتو ونفور : ما حكى الله فى قوله (اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمرُ . وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحرٌ مُستمِرٌّ) فلم ينكروها ولكن تأولوها بما لا يقبله منصف ولا يرتضيه إلا صاحب هوى ، ولذلك أردفه بقوله سبحانه (وكذبوا واتبعوا

أهواءهم) و إنكار الآية الساطعة إن دل على شيء فليس يدل إلا على فساد في نفسية المنكر ، برذيلة هوى غطت فضيلة الانصاف . قال الامام الفقيه المحدث ابن عبد البر « قد روى هذا الحديث ـ يعني حديث انشقاق القمر بدعائه ﷺ حين سألوه إياه ـ جماعة كثيرة من الصحابة ، و روى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا » . اه

ولا يرتاب منصف أن هذه الآية الكبرى لايكاد يعد لها شيء من آيات النبيين عليهم الصلاة والسلام ، و ربما أعمى الهوى ـ والهوى يعمى و يصم ـ المغرقين في التعصب للباطل فشكك فقال: لوحدثت لشاهدها جميع أهل الأرض ولدونتها تواريخ أهل الغرب إلى أمثال هذه الهذيانات التي تندفع عن العاقل بأدنى تأمل ، فأن أطوال البلاد مختلفة ، بل الصحو والغيم في البلاد ذات الطول الواحد بل في البلد الواحد مختلف جد الاختلاف ، وأهل المراصد إنما يرقبون ماتهدى إليه القواعد العامة الفلكية . أما آية إلهية خارجة عن النواميس المألوفة والضوابط المعروفة ، فأنه لن يشهدها إلا طالبوها غالباً . وكم من كسوف ليلى أو طلوع لكوكب مذنب يحدث ولايدرى به إلا القليل من أهل ناحيته ، وربما لم يشعر به إلا من عرف القواعد من القاعدة نفسها لامن مشاهدته

إن آيات ربنا بينات ✽ لايمارى فيهن إلا الكفور

ومن الناس من قل علمه بتفسير كتاب الله فتأول (وانشق) على معنى سينشق ، وهو تأويل إن أفاد فليس يفيد إلا جهل قائله بالسنة الصحيحة ، بل المستفيضة التي كادت تبلغ حد التواتر ، بل قال بعض العلماء بتواترها تواتراً معنوياً ، وغفلته عن سياق الآيات الكريمة كما بين ذلك حذاق المفسرين رضي الله عنهم . ولست أظنك تأبه بقول من يقول طعنا على هذه الآية الكبرى : إن ذلك يخالف نواميس الكون ، بعد الذي بيناه في الفصول السابقة مفصلا في أمر هذه النواميس . ثم انطلقت السورة الكريمة تسرد من هذه البراهين السابقة من الله

تعالى التى أحست وشوهدت فى الماضين ، وقد حفظها العلم ووعاها التاريخ ، تفصيلا عند علماء أهل الكتاب ، وإجمالا عند سواهم ، فذكرت خمس قصص على أبدع هداية وأروع دلالة ، ثم التفتت فقالت لهذه الأمة (أكفاركم خير من أولئكم) ثم أردفت ذلك بوعيد مستقبل قريب تحققت مشاهدتهم له فيما بعد نزول السورة الكريمة ، وهو فى قوله تعالى (سَيُهزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) فتحقق فى غزاة بدر والحمد لله على سطوع حجته ، ونسأله الهدى لسلوك محجته وحسن الخاتمة .

وهذه أخرى من كرائم سور هذا الكتاب الكريم تنحو هذا النحو ، وهى سورة الشعراء ، فكما يقص صاحب الكيمياء مشاهدات السابقين فى هذا العلم واحدا بعد واحد ، ليسرى على ضوء أبحاثهم ، قص تعالى وله المثل الأعلى فى هذه السورة سبع قصص لسبعة أنبياء عظام ، أرسلوا إلى أمم ضخام ، فكانت العاقبة لمن صدق المرسلين ، وكانت الخيبة للمعاندين ، ثم قال بعد كل هذا (وَإنهُ لتنزيلُ ربِّ العالمين نَزَلَ به الروحُ الأمين) الآيتين . ثم لم يدعها بلا دليل بل استدل على أنه تنزيل منه سبحانه ، وليس من عند هذا الداعى الأمين ، بقوله تعالى (أولم يكنْ لهم آيةً أن يعلمهُ علماءُ بنى إسرائيل) ومن الظاهر المكشوف لأعدائه المعاصرين له ، وأحبائه ومن بعدهم من العارفين بتاريخه ، أنه لم يخالطهم وكان أمياً لم يتل قبل القرآن من كتاب ولا خطه بيمينه ، فصلى الله وبارك على هذا النبى ، ما أسطع ضياء شمس رسالته . وجل هذا القرآن المجيد ما أوضح وأكثر أدلته . ولنقسر القلم عن السير فميادين هذا القرآن فسيحة وروائعه تحفى الأقلام دون استقصائها ، ولنرتق بك إلى المقصد من هذا المؤلف ففيما مضى من هذه المقدمات ما يجعل الكلام معك فيه واضحا بينا إن شاء الله ، فلتكن منك على بال .

المقصد

(فى الصفات المختصة بالخلق والصفات المختصة بالحق على مايهدى إليه القرآن الحكيم و يشهد به العقل السليم) .

تمهيد

اعلم علمك الله العلم النافع أن العلم بما فى هذا المقصد أعز العـلوم وأسناها وأن مسائله أنفس المطالب وأرقاها ، والجهل بهـا شديد الخطر عظيم الخطب فانه يفضى بصاحبه إما إلى كفر تكون نهايته الوقوع فى عذاب الله بلا نهاية ، و إما إلى بدعة شنعاء تنزل بصاحبهـا عن أوج درجات العلماء بالله إلى حضيض دركات المتخبطين فى ظلمات الأوهام ، وهل نبت الاشراك بالله تعالى فى هذه الانسانية إلا من بذو ر الجهالة بهذه المطالب العليا ؟ وهل انشعب القول باتصاف الله تعالى بالولادة تارة واتخاذ الولد أخرى إلا من التلوث بجراثيم هذه العقائد المزيفة ؟ وهل تفرع القول بحمل الآيات المتشابهة والأحاديث النبوية المشكلة على المعـنى الظاهرى الذى تفهمه الجهـلة إلا من عدم الاحاطة بأصول هـذا العلم الأسمى المنبثة فى هـذا القرآن المجيد ، والمغروسة فى الفطر التى لم تصب بمرض التقليد لشيوخ الهوى الناكبين عن طريق الهدى المتكلمين فيما لم يحيطوا بعلمه ، فتأولوه على غير وجهه ، وأخذوا يسترون جهالاتهم عن أتباعهم من العامة بذم علم الكلام والمتكلمين من أهل السنة ، شكر الله تعالى سعيهم ، واستراحوا إلى مانقل عن السلف الأولين كالشافعى وأحمـد وأضرابهما من ذم الكلام وأهله ، ومن لى بأن يعرف هؤلاء وأشياعهم أن الـكلام كان يطلق فى تلك العهود السابقـة على مايأتى به أهل الأهواء من الطعن فى القدر و إنكار الشفاعة فى عصاة الموحدين ، وخلق الجنة والنار ، والصراط والميزان ، والحوض وأخذ الـكتب بالايمان أو الشمائل ، وغفران الله مادون الشرك لمن يشاء ، وكالخوض فى صفات الله وجعلها كصفات

البشر ، فوصفوه بالمكان والجهة والنزول والصعود المتعارفين للأجسام ، إلى أشباه ذلك من بدع المعتزلة والكرامية وغيرهما ، وأول من صنف فى الكلام من أهل الأهواء واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، وتابعه على ذلك أكابر شيعته ، ومن أجل هذا اشتد النكير من أئمة أهل السنة على الكلام والخائضين فى الكلام ، والقارئين فى كتب أهله ، وهم يريدون ماأتى به أهل الأهواء على اختلاف نحلهم فى مجالسهم ومصنفاتهم . ولما اشتد ساعد البدع وانتشر ضررها فى الناس بمشاغبة دعاتهم وانتشار مؤلفاتهم الموبوءة بين العامة ، اضطر أهل الحق للكلام فى رد هذه البدع بعقد مجالس المناظرة معهم والتصنيفات الجامعة لما بينه القرآن من أصول الدين ، وأوضحته السنة ، وقررته العقول المستنيرة ، كشفا لعوار تلك البدع ، وإزاحة للظلم التى لبّس بها أهل الهوى عن وجه الهدى الذى جاء به الكتاب العزيز . وصار الكلام بعد ذلك يطلق إطلاقا آخر ويراد به معنى سوى المعنى الأول الذى أنكرته الأئمة . هذا الأطلاق الثانى هو إطلاقه على ماجاء به المحققون من أكابر أهل السنة من الحجج الدامغة لأباطيل الكفار ، وشبه المبتدعة من أهل الاسلام ، وأصبح علم الكلام لايراد به إلا هذا ، وكثرت فيه التصانيف من المتقدمين والمتأخرين ، فانتهز أهل الأهواء جهل العامة بالفرق بين هذين الاطلاقين ونقلوا لهم كلمات الأئمة فى ذم الكلام وأهله ، ليصدوهم عن كتب أهل الحق النافية للتجسيم ولوازمه عن رب العزة ، كما يقتضيه كتاب الله سبحانه كما سنفصله فى هذا المقصد إن شاء الله . وليس ببدع مايسلكه مبتدعة عصرنا من ذلك ، بل هى طريقة مسلوكة قديما لأسلافهم الأولين ، ودونك ماقال فى هذا المقام إمام أئمة أهل السنة ومقدم الجماعة علما وحالا وقالا ، والمجمع على مكانته العليا فى الفضل من الموافق والمخالف ، الأستاذ الأجل أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى رضي الله عنه صاحب الرسالة التى سارت بين أهل الفضل مسير الشمس ، وأزالت عن طريق أهل الحق كل لبس ، فى رسالته التى بعث بها إلى علماء المشارق والمغارب المسماة

«شكاية أهل السنة بحكاية مانالهم من المحنة» قال فيها رضى الله عنه بعد أوراق مانصه «فان قالوا إن الاشتغال بعلم الكلام بدعة ومخالفة لطريق السلف (قيل) وأخذ فى الجواب إلى أن قال : الاسترواح إلى مثل هذا الكلام صفة الحشوية الذين لاتحصيل لهم ، وكيف يظن بسلف الأمة أنهم لم يسلكوا سبيل النظر ، وأنهم رضوا بالتقليد ؟ حاش لله أن يكون ذلك وصفهم . ولقد كان السلف من الصحابة رضى الله عنهم مشتغلين بما عرفوا من الحق ، وسمعوا من الرسول ﷺ من أوصاف المعبود ، وتأملوه من الأدلة المنصوبة فى القرآن وأخبار الرسول ﷺ فى مسائل التوحيد . وكذلك التابعون وأتباع التابعين لقرب عهدهم من الرسول ﷺ ، فلما ظهر أهل الأهواء وكثر أهل البدع من الخوارج والجهمية والمعتزلة والقدرية وأوردوا الشبه ، انتدب أئمة أهل السنة لمخالفتهم والانتصار للمسلمين بمباينة طريقتهم ، فلما أشفقوا على القلوب أن تخامرها شبههم ، شرعوا فى الرد عليهم ، وكشف فسقهم ، وأجابوهم عن أسئلتهم ، وحاموا عن دين الله بايضاح الحجج ، ولما قال الله تعالى (وَجَادِلْهُمْ بِالتى هِيَ أَحْسَنُ) تأدبوا بآدابه ، ولم يقولوا فى مسائل التوحيد إلا بما نبههم الله سبحانه عليه فى محكم التنزيل . والعجب ممن يقول ليس فى القرآن علم الكلام ، والآيات التى فى الأحكام الشرعية العملية معروفة معدودة ، والآيات التى فى الاحكام الاعتقادية ودلائلها تجدها تزيد على ذلك العدد وتربى بكثير ، وفى الجملة لا يجحد علم الكلام إلا أحد رجلين : جاهل ركن إلى التقليد وشق عليه سلوك أهل التحصيل ، وخلا عن طريق أهل النظر ، والناس أعداء ماجهلوا ، فلما انتهى عن التحقيق بهذا العلم نهى الناس ليضل غيره كما ضل . أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة فينطوى على بدع خفية يلبس على الناس عوار مذهبه ويعمى عليهم فضائح طويته وعقيدته ، ويعلم أن أهل التحصيل من أهل النظر هم الذين يهتكون الستر عن بدعهم ، ويظهرون للناس قبح مقالتهم ، والقلاب — يعنى مزيف النقود — لايحب من يميز

النقود . والخلل فيما فى يده من النقود الفاسدة لا فى الصراف ذى التمييز والبصيرة، وقد قال الله تعالى (هَلْ يَسْتَوِى الّذِينَ يعلمون وَ الذين لاَ يعلمونَ) انتهى ما أردنا نقله من هذه الرسالة القيمة لهذا الحبر الجليل ، وقد نقلها كلها التاج رضى الله عنه فى الجزء الثانى من طبقاته ، وأولها من صفحة خمس وسبعين ومائتين من النسخة المطبوعة بمصر لأول مرة ،وكفاك بقول هذا الامام الحجة دليلا على ما أسلفنا . نعم إن كثيرا من فضلاء أهل هذا الفن قد اضطرهم لجاج خصوم السنة ودعاة البدعة ، إلى التوسع فى البحث فدخلوا فى متاهات ليس الجمهور فى حاجة إلى التورط فى دخولها. و فيما دل عليه كتاب الله غنية أى غنية ، و بيان هو خير بيان ، ولذلك لا نقذف بك إلى هذه اللجج ، بل نسلك بك الجادة التى اختطها للناس هذا الكتاب العزيز ، ونريك كيف أبان القرآن صفات المخلوقات التى لا يصح أن يتصف بها العزيز الحكيم ، وأوضح الصفات المختصة بالحق ولا يجوز أن تكون من أوصاف المخلوقات ، فأنه كما هو قرآن جمع لهذه الامة علوم الأولين والآخرين ، هو فرقان فرق بين الهدى والضلال ، و بين الرشد والغى ، و بين ما ينبغى للرب وما هو وصف العبد ، فالحمد لله الذى أنزله قرآنا عربيا تبيانا لكل شىء ، لا بد للناس منه فى اعتقاداتهم وأعمالهم أحوج ما كانوا إليه ، فأنهم كانوا من قبل نزوله فى ضلال مبين ، طالت عليهم الفترة من الرسل فساد الفساد وعم الجهل ، و بدل علماء السوء من أهل التوراة والأنجيل دين الله الذى أنزله إليهم ، وتحكموا فى عقول العامة حتى حجروا عليهم التفكير فيما يلقون إليهم . وأوهموهم أن الدين فوق العقل ، ولم يستطع علماء الآخرة منهم أن يجاهروا بالحق الذى يعلمونه. هذه حال أهل الكتابين ، فما ظنك بالعرب والفرس وأهل الهند والصين ، أخذت منهم الوثنية كل مأخذ ، وسلك بهم الهوى من الضلال كل مسلك ، فما هو إلا أن فتح الكريم الوهاب أبواب رحمته الكبرى فبعث هذا النبى الأمى بهذا الكتاب العربى هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان ، وهو كما أخرج الترمذى من

حديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في وصف القرآن العظيم قال : « فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الاهواء - أى لا تنحرف الأهواء عن الحق مادامت تصاحبه - ولا تلتبس به الألسنة - أى لا يشتبه على الألسنة - بغيره لقوة ظهوره وشدة تميزه عن كلام الناس بنظمه وأسلوبه وحفظ الله إياه ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه » الحديث ، وقوله فيه يخلق بضم اللام وفتحها مع فتح الياء أو بضم الياء مع كسر اللام من أخلق وكله بمعنى يبلى كما سبقت الأشارة إليه في المقدمة .

﴿ فصل ﴾

اعلم أن الحكمة التى هى بمعناها الصحيح وهى الحق المحض ولب العلم الخالص والتى الانحراف عنها أو التحريف فيها خروج عن الجادة ودخول فى الباطل . الحكمة التى هنا وصفها هى ماجاء به القرآن المجيد ، ونطق به الخبر الصحيح ، عن سيد المرسلين ﷺ ، وهى أن لهذا العالم كله عاليه وسافله ، شاهده وغائبه . لطيفه وكثيفه . ربا واحداً لا شريك له و إلها فرداً لا نظير له ، وهو الأول لا ابتداء لوجوده الأعلى ، وسائر كمالاته العليا ولا انتهاء . المقدس عن البساطة والتركب المنزه عن الاعضاء والأجزاء ، المتعالى عن الحدوث والامكان ولوازمهما ، المبرأ عن الاحتياجات ، الغنى كل الغنى عما سواه ، الحى بذاته لا بروح تحله ولا بسبب يقتضيها ، المحيي لما شاء كما يشاء ، النافذ الارادة ، التام القدرة على ما يريد . لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، علم كل شيء قبل أن يكون شيء ، علما أزليا كسائر صفاته المقدسة . وليس علمه عن كسب ولا تجربة وهو السميع البصير ، جل سمعه عن الحاجة إلى الأعصاب والاصمخة والآذان ، وتعالى بصره عن الحدقة والاجفان

أنزل منه كتبه على رسله فضلامنه و رحمة ، كان ولم يكن شيء غيره ، ثم فطر هذه الـكائنات مناً منه بها عليها . وأبدعها على صفات تدل عقلاءها على أنها حادثة ممكنة ، وترشدهم إلى انفراد مبدعهم بالـكمال الاعلى ، فـكان من علىّ اقتداره أن جعل الحجة منهم عليهم ، والدلالة عليه سبحانه فيهم لازمة لهم ، وخلق العقول وألهمها التفكر فيما لديها وما بين يديها ، وأكمل حجته وأبان محجته بأرسال المرسلين وختمهم عليهم الصلاة والسلام بأوضحهم بيانا وأفصحهم لسانا وأجمعهم كتابا وأظهرهم صوابا نبينا محمد ﷺ فبلغت حجته سبحانه غايتها ، وظهر برهانه أظهر من كل ظهور لاسيما بهذا الـكتاب المبين، فانه يأمر العقول بالنظر ، ويهيب بالأفكار أن تتحرك ويصيح بالجامدين على التقليد بآبائهم فيما ورثوا من الجهل أن يستبصروا فيقول (أفلم يروْا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) ويستلفت إلى ماهو أقرب من السماء والأرض وهو الأنفس فيقول : (أولم يتفكروا فى أنفسهم) ويزيد فى البيان فيقول : (إن فى السموات والأرض لآيات المؤمنين . وفى خلقكم ومايبثُّ مِنْ دابَّة آياتٌ لقوم يوقنون . واختلافِ الليل والنهار وماأنزل اللهُ من السماء مِن رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريفِ الرِّياح آياتٌ لقوم يعقلون) يعنى أنه سبحانه قد جعل فيما ذكر أماراتٍ واضحة ودلائل ناطقة بحاجتها إلى الخالق الحكيم ، وانفراد هذا الخالق بالـكمال الأتم فلا يصح أن يُعبد سواه ، ولا يرجى الخير إلا منه ، ولا يدفع الضُّرّ إلاهو : فان الآيات جمع آية وهى العلامة والأمارة والدليل ، وقد جعلها من الظهور بحيث لايمنع من فهمها إلا انصراف العقل عن النظر إليها ، وتلوّث النفس بجراثيم التشكك فيها الذى لا مبرر له ، والعناد بغيا وتكبراً ، وهذا هو السر فى قوله تعالى (لِلمؤمنين ـ لقوم يوقنون ـ لقوم يعقلون) فالمعنى أن من أراد أن يؤمن بهذا الهدى وطلب اليقين بهذا الحق ، وأعطى العقل حظه من النظر الصحيح ، وجد فى السموات والأرض وما ذكر فى الآيتين ما يُبلغه ما يريد ، ويدلُّه على أن هذه الكائنات

محدثة مخلوقة ، وأن المنفرد بخلقها والمستحق لعبوديتها هو ذلك الرب الواحد المجيد . — ويا سبحان الله ما أعجب إرشاد هذا القرآن !! يرى التفاوت بين العقول فمنها القوى على الجولان فى ملكوت السموات والأرض ، القادر باذن الله على استخراج ما لا يحصى من درر آيات الله من بحار هذا الملكوت فيطلق له النظر فى الآيات إطلاقا كما فى الآيات التى تلوناها . ومنها المتوسط ودون المتوسط فيضع فى يده من تلك الآيات ما يكون له صراطا مستقيما إلى المطلب .

فانظر معى — بصرك الله — إلى صرائح هذه الآيات التى أتلوها عليك (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين) والبروج : الكواكب العظام (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) فتأمل فى قوله « مددناها » فهذا المد فيها مع كونها كرة من أبدع ما يدل على حكمة من وضعها لمعيشة هذه الكائنات عليها ، وتبصر جد التبصر فى قوله فى النبات (من كل شيء موزون) ولن تستطيع أن تفهمه حق فهمه حتى تتبحر فى علم المملكة النباتية وتقرأ ما كتب فى النبات وأجزائه ومقادير العناصر التى تنساق إليه على ما يناسب كل نوع منه . وللفاضل الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسير هذه الآية وأشباهها من تفسيره المطبوع يد طولى فى بيان بعض هذه الأسرار التى لا يحيط بتمامها إلا الخلاق العليم . فارجع إليه إن أحببت اقتباس هذه الفوائد الشريفة . ثم قال تعالى : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) فأقسم بالذى أنزلها إن المجلدات الكثيرة الضخمة لن تفى بتفسير هذه الآية على التفصيل ، بل ولا بعشر معشارها ، فانه شرح المكونات كلها و بيان الحكم التى لا تحصى فى تخصيصها بما هى عليه من صفاتها ومقاديرها ، وأوقاتها وأشكالها وألوانها و إضاءة المضيء منها ، وغير ذلك مما لا يضبطه العد . والمعنى الاجمالى لهذا الكلام العزيز أن الوزن بميزان الحكمة ليس قاصرا على النبات فحسب ، وليس ما فى الكون كله هو كل ما فى قدرتنا ، بل ما من شيء فى الكون إلا

ونحن قادرون على جعله أضعافا مضاعفة ، غير أن عنايتنا اقتضت أن لانبرز من علىّ جودنا إلى فضاء هذا الوجود إلا ما تحدده الحكمة ويقتضيه علمنا الأعلى ، ورحمتنا التى لا تحد . قال الامام المحقق ناصر الدين البيضاوى فى تفسيرها «وما من شىء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه ، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره ، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التى لايحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد « وما ننزله » من يفاع القدرة « إلا بقدر معلوم » حدّته الحكمة وتعلقت به المشيئة ، فان تخصيص بعضها بالايجاد فى بعض الأوقات مشتملا على بعض الصفات والحالات ، لا بد له من مخصص حكيم ». انتهت عبارته رضى الله عنه ـ واليفاع ـ بفتح الياء المثناة من تحت والفاء المخففة : المرتفع وأشار به إلى أن التنزيل هنا ليس من باب المكان كما يخطر للواهمين وإنما هو من علو مقام المعطى جلا جلاله .

﴿ فصل ﴾

ثم الآية الكريمة بعد هذا تعطيك مسألة من علم التوحيد ، بل مسائل هى من أهم مسائله وهى أن كل مقدَّر بقدْر ومحدود بحدود ، فهو حادثٌ ممكن ، لابد له فى وجوده واختصاصه بقدره الذى هو عليه من فاعل موجود واجب ، أعطاه وجوده وخصصه بالقدر الذى هو عليه ، وما من شىء فى العالم إلا وهو ذو قدر معين فى ذاته ومكانه وزمانه وصفاته ، من صغر وكبر ، وطول وقصر ، وخفة وثقل ، ونور وظلمة ، وارتفاع وانخفاض ، ولطافة وكثافة ، وسيلان وجمود ، وحرارة وبرودة ، وحركة وسكون ، وما يستتبع هذا من أشكال وألوان ، وطعوم وروائح ، وصعود ونزول ، وأمكنة وجهات ، وقرب وبعد ، إلى سائر خصائص المادة مما لم نذكره وبين فى علم خصائص المادة ، فكل ذلك تنطق الآية الكريمة بأنه مختص بالمخلوقات يتعالى عن الاتصاف بشىء منه ربها وخالقها ، فان

كل ذى قدر فهو مخلوق ، إذ الخلق يدور فى اللغة على معنى التقدير أو الايجاد على قدر معين ، ولذلك يقول تعالى : (الله خالق كل شىء) ومعناه أن كل شىء فله قدر مخصوص كما ترون ، وذو القدر المخصوص ينادى على نفسه بأنه حادث ممكن مخلوق لا بد له من خالق فأنا خالقه لا خالق له سواى ، فالقرآن ينادى بأن الجسمية ، ولوازمها هى من دلائل الحدوث ولوازم الإمكان ، وهذا هو بعينه ما قرره علماء المعقول ، وفضلاء أهل علم الكلام ، بل كل ذى قدر ولو صغر جداً بحيث لا يبلغ أن يكون جسما ، فهو داخل فيما حكمت عليه الآية أنه مخلوق للقادر الحكيم . ولم يكتف القرآن حتى صرح بهذه اللوازم تفصيلا لمن تدبره مستدلا بها لعباده فقال : (والسماء رفعها) (والأرض وضعها) فهذا يبين لك أن الارتفاع والانضاع الحسيين كما يشاهد فى السماء والأرض هما من صفات الحادثات الممكنات لا بد لهما من فاعل وأنه فاعل ذلك فهو الرافع الخافض ، وما هو من دلائل الحدوث يستحيل أن يكون وصفا للواجب المتعالى . وكذلك قال سبحانه (الله الذى رفع السموات) (وهو الذى مد الأرض) أى خفضها وجعلها بحيث تصلح للمشى فى مناكبها قال (وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) ثم ذكر انقسام الأرض إلى أجزاء مختلفة واتصاف ثمار الجنات والزروع بتفاضل بعضها على بعض فى الأكل ، وأنه هو فاعل ذلك ومجزئه ومقسمه ، كما أشار فى آية أخرى إلى أنه مجزئ جسم الانسان إلى أجزاء ، وجاعل لكل منها وظيفة ، فقال (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين) واحتج على الانسان بوجوده على القدر المخصوص وتجزئته إلى الأجزاء المسماة المعدولة عما يجوز عليها من الصفات إلى ما هى عليه من الحسن والنظام وتركيبه . فقال : (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك) فالعقول تفهم ببداهتها أن الانقسام إلى الأجزاء لا سيما إذا كانت مسواة ، والتركب من الجوارح والأعضاء لا بد له من موجد مقسم مركب ، ولذلك

احتج الله به على ابن آدم ، ومحال أن يحتج الله على الحدوث بوصف ثم يكون هذا الوصف فى ذاته عز وجل ، فمن قال بتركب ذات الله من الأجزاء وحمل اليدين والعين والأعين والوجه واليمين الواردة فى كتاب الله فى وصف الله والقدمين والساق فى الحديث على الأعضاء والأجزاء، وحمل العلو الوارد فى وصفه تعالى على العلو الحسى المكانى ،والنزول على مثل ذلك، وأن ذلك مقتضى الكتاب والسنة ، وأنه بذلك يكون سلفيا ، فما فهم الكتاب ولا السنة ولا تابع السلف الصالح ،فهذا كتاب الله يرد عليه أبلغ رد، وما أبدع ماقال ناصر الدين القاضى البيضاوى فى تفسير قوله تعالى: (وَجعلوا لهُ مِنْ عباده جُزءاً) ونصه بعد ماساق الجملة الشريفة «متصل بقوله (ولئن سألتهم) أى وقد جعلوا له بعد ذلك الاعتراف من عباده ولداً فقالوا : الملائكة بنات الله ، لعله سماه جزءا كما سمى بعضاء لأنه بضعة من الوالد، دلالة على استحالته على الواحد الحق فى ذاته » اهـ، فانه تعالى لو جاز عليه الانقسام أو صح عليه الصغر أو الامتداد لكان مقدراً ،وقد علمت أن كتابه سبحانه ينادى بأن كل مقدر حادث مخلوق ، فيكون ممكنا ، والممكن يستحيل أن يكون خالقا وموجداً ، وقد ثبت أنه الخلاق فيجب أن يكون متصفا بوجوب الوجود وتوابع هذا الوجود الواجب من الكمالات العليا ، فوجب أن يكون منزهاً عن التركب وقبول الانقسام ، وكل ما هو من خصائص المادة والأجسام ، بذلك نطق كتاب الله لقوم يسمعون ، ونادت بهذا آياته من ألقى إليها السمع وهو شهيد . وعلى ذلك أطبق أهل السنة الذين لم يصابوا بما أصيب به أهل الهوى من مرض التشبيه والتجسيم الذى أصيب به اليهود من قبلهم ، ووقع فيه النصارى من بعدهم . والعجب أنك ترى إمام المدافعين عن بيضة أهل التشبيه وشيخ إسلام أهل التجسيم ممن سبقه من الكرامية وجهلة المحدثين الذين يحفظون وليس لهم فقه فيما يحفظون ، أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية ،يرمى إمام الحرمين وحجة الأسلام الغزالى بأنهما أشد كفراً من اليهود

والنصارى ، فى كتابه الموافقة المطبوع على هامش منهاجه ، لقولهما بالتنزيه ، وهما لم ينفردا به ، بل هو قول المحققين من علماء الملة الاسلامية من الصحابة فمن بعدهم إلى زمانه ـ وكانت وفاته فى القرن الثامن ـ و إلى زماننا، و إلى أن يأتى أمر الله . فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام « لن تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتى أمر الله » و فى بعض ألفاظ هذا الحديث « أنهم السواد الأعظم من أمته » وسيأتى لنا كلام فى خطر الاغترار بهذا الرجل ومصنفاته وشيعته ، و رأى المحققين من الجهابذة فيه وفيهم فانتظر .

﴿ فصل ﴾

واعلم أن بين المقدرات من الجواهر التى هى الأجسام فما دونها و بين المكان والجهة لزوما بينا ، وهو مالا يحتاج عند العقلاء إلى دليل ، فان المكان هو الموضع الذى يكون فيه الجوهر على قدره ، والجهة هى ذلك المكان ، لكن بقيد نسبته إلى جزء خاص من شىء آخر ، فكل جهة مكان ولا عكس ، فالفراغ الذى أنت فيه هو مكانك ، و باعتبار محاذاته لرأس شخص آخر هو جهة تسمى فوقا ، و باعتبار محاذاته لرجله تسمى تحتا ، أو لوجهه أو ظهره أو أقوى يديه أو أضعفهما تسمى أماما وخلفا و يمينا وشمالا . والجوهر هو مقدر لابد أن يأخذ قدرا من الفراغ على قدره صغيرا كان أو كبيراً ، فأنت ترى من البين الجلى أن بينهما تلازما أى تلازم ، والقول بأحد المتلازمين قول بالآخر ، و بنفى أحدهما نفى للآخر . وقد عرفت أن القرآن يستدل فى صراحة بتقدر الأشياء على حدوثها ومخلوقيتها ، فمن السهل عليك أن تعرف أن القرآن قد قرر بذلك تعالىَ الحق فى ذاته عن أن تكون مقدرة أو ذات امتداد ، أو يجوز عليها الانقسام أو متصفة بكبر أو صغر كما هو للماديات ، وذلك قول يهيب بأهل الفقه فى كتابه أن يعتقدوا تنزهه عز وجل عن الجهة والمكان ، ومن قال غير هذا فقد غلب عليه الوهم وفاته الفهم ، فان نسب إلى

الكتاب العزيز القول بالجهة والمكان فى حق ربنا عز وجل ، أو إلى السنة المطهرة فقد افترى على كتاب الله وكذب على سنة رسول الله ﷺ ، وأتى من ناحية جهله وقلة تفقهه فى دلائل الكتاب العزيز ، ونزعه عرق العجمة إلى مشابهة اليهود فى القول بالتجسيم والجهة فى حق الله تعالى عما يقولون . أو غلبته العصبية لهوى فيه أو فيمن قلدهم من أشياخ البدعة . فان كان داعية إلى القول بذلك يعقد له الدروس ويصنف فيه الكتب وينادى به على المنابر فهو الذى أصيب بالجهل المركب وهو من أول الداخلين فى قوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله). قال ترجمان السلف وشيخ المفسرين الامام الحجة ابن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية : « يعنى بقوله جل ثناؤه فيتبعون ما تشابه ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التأويلات فى ذلك ماهم عليه من الضلالة والزيغ عن محجة الحق ، تلبيساً منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه » ثم ساق بسنده عن ابن عباس من طريق على بن أبى طلحة عنه — وهو أصح الأسانيد فيما يروى عن ابن عباس فى التفسير — قال فيتبعون ما تشابه منه فيحملون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ويلبسون فلبس الله عليهم » . ثم ذكر بسنده عن محمد بن جعفر بن الزبير وعن مجاهد نحوه ثم قال : واختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية ، فقال بعضهم عُنِىَ به الوفد من نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله ﷺ فحاجوه بما حاجوه به وخاصموه بأن قالوا ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته ؟ وتأولوا فى ذلك ما يقولون فيه من الكفر ، ثم ساق بالسند عن الربيع هذا القول ، وحكى عن بعضهم أن المعنىّ اليهود الذين سألوا عن الحروف المقطعة أوائل السور ، وساق قصتهم فى ذلك . ثم قال : وقال آخرون بل عنى الله عز وجل بذلك كل مبتدع فى دينه بدعة مخالفة لما ابتعث رسوله محمداً ﷺ بتأويل يتأوله من بعض أى القرآن المحتملة التأويلات ، وإن

كان الله قد أحكم بيان ذلك إما فى كتابه وإما على لسان رسوله . ثم ساق بسند صحيح عن قتادة فى قوله (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة) وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) قال إن لم يكونوا الحرورية والسبئية ، فلا أدرى من هم ، ولعمرى لقد كان فى أهل بدر والحديبية الذين شهدوا مع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان من المهاجرين والانصار خبر لمن استخبر وعبرة لمن استعبر ، لمن كان يعقل أو يبصر أن الخوارج خرجوا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير بالمدينة والشام والعراق ، وأزواجه يومئذ أحياء ، والله إن خرج منهم ذكر ولا أنثى حروريا قط ، ولا رضوا الذى هم عليه ولا مالؤوهم فيه ، بل كانوا يحدثون بعيب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم ونعته الذى نعتهم به ، وكانوا يبغضونهم بقلوبهم ، ويعادونهم بألسنتهم ، وتشتد والله عليهم أيديهم إذا لقوهم ، ولعمرى لو كان أمر الخوارج هدى لاجتمع ، ولكنه كان ضلالا فتفرق ، وكذلك الامر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافا كثيرا فقد ألاصوا — أى أرادوه وحاولوا رواجه — هذا الأمر منذ زمان طويل فهل أفلحوا فيه يوماً أو نجحوا ؟ يا سبحان الله ! ! كيف لا يعتبر آخر هؤلاء القوم بأولهم ؟ لو كانوا على هدى لأظهره الله وأفلحه ونصره ، ولكنهم كانوا على باطل أكذبه الله وأدحضه ، فهم كما رأيتهم كلما خرج لهم قرن أدحض الله حجتهم . وأكذب أحدوثتهم ، وأهراق دماءهم ، وإن كتموا كان قرحاً فى قلوبهم ، وغما عليهم ، وإن أظهروه أهراق الله دماءهم ، ذا كم والله دين سوء فاجتنبوه ، والله إن اليهودية لبدعة ، وإن النصرانية لبدعة ، وإن الحرورية لبدعة ، وإن السبئية لبدعة مانزل بهن كتاب ولاسنهن نبى » . ثم ذكر فى الفتنة قولين فى قوله تعالى (ابتغاء الفتنة) أهى الشرك أم الشبهات ؟ ثم قال : وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال معناه إرادة الشبهات واللبس ، فمعنى الكلام إذا فأما الذين فى قلوبهم ميل

عن الحق وحيف عنه فيتبعون من آى الكتاب ما تشابهت ألفاظه ، واحتمل صرفه فى وجوه التأويلات باحتماله المعانى المختلفة إرادة اللبس على نفسه ، وعلى غيره احتجاجاً به على باطله الذى مال إليه قلبه دون الحق الذى أبانه الله فأوضحه بالمحكمات من آى كتابه وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك ، فانه معنى بها كل مبتدع فى دين الله بدعة فمال قلبه إليها تأويلا منه لبعض متشابه آى القرآن ، ثم حاج به وجادل به أهل الحق وعدل عن الواضح من أدلة آيه المحكمات إرادة منه بذلك اللبس على أهل الحق من المؤمنين ، وطلبا لعلم تأويل ما تشابه عليه من ذلك ، كائنا من كان ، وأى أصناف البدعة كان من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية أو كان سبئيا أو حروريا أو قدريا أو جهميا » اه أقول : فهؤلاء وأشباههم من الذين يتعين على الامة أن تحذرهم خصوصاً من لم يتبحر فى علم العقائد فانه يلتبس عليه الأمر فيعتقد العقائد البدعية وهو يرى أنها صميم السنة ، ومن أجل هذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه تلا قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) الآية ثم قال عليه الصلاة والسلام « إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم » أخرجه الشيخان . هذا وإنى أعود فأكرر لك النصيحة مخلصا والله على ما أقول شهيد فأقول : إن القرآن المجيد لم يدع للمتأمل فيه مجالا للشك فى أن ماكان من الصفات لازما من لوازم الجوهر صغيرا كان أو كبيرا هو من دلائل الحدوث ، والحدوث يستلزم الامكان ، وقد سبق لك البرهان فى المقدمة على ذلك ، ألا ترى الله سبحانه وتعالى يقول (وخلق كل شىء فقدره تقديراً) (قد جعل الله لكل شئ قدرا) (الذى خلق فسوى) فكون الشئ على قدر مخصوص يستلزم بوضوح أن له مقدراً قدره ، فبين القرآن أن مقدر المقدرات إنما هو الله وحده ، وما من شىء من هذه الكائنات إلا له قدر مخصوص ، وكذلك دل مولانا عز وجل عباده على الحدوث بالحركات واختلافها ، والأجزاء للشىء

الحنابلة ببغداد وابن رئيسها « أنكر أحمد على من قال بالجسم ، وقال إن الأسماء مأخوذة من الشريعة واللغة ، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على ذى طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف ، والله سبحانه خارج عن ذلك كله ، فلم يجز أن يسمى جسما لخروجه عن معنى الجسمية ، ولم يجئ فى الشريعة ذلك فبطل » اهـ بحروفه . ونقل الحافظ ابن الجوزى عن الامام أحمد نحو ذلك فى كتابه « دفع شبه التشبيه » وأنت خبير بأن نفى الجسمية نفى للجهة والمكان فانهما لازمان لها لذاتها لزوماً مساويا ، وإذا ثبت اللازم المساوى ثبت ملزومه . لايشك فى ذلك من يعرف معنى اللازم المساوى ، فهو بمنزلة الحدوث للامكان والانقسام بمتساويين للزوج .

﴿ فصل في نقول مهمة عن أكابر السلف تجلى لك الامر ﴾

فمنهم الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة تسع وثلاثمائة ، فصرح عبارته فى الجزء الأول من تاريخه بان الجسمية تستلزم الحدوث ، وأن خالق المخلوقات يتعالى عنها . وننقل لك هنا عبارته وإن خرج بعضها عن غرض هذا الفصل لحسنها ونفاستها . قال رضى الله عنه مانصه : (القول فى الدلالة على أن الله عز وجل هو القديم الأول قبل كل شيء وأنه هو المحدث كل شيء بقدرته تعالى ذكره) فمن الدلالة على ذلك أنه لاشيء فى العالم مشاهد إلا جسم أو قائم بجسم وأنه لاجسم إلا مفترق أو مجتمع ، وأنه لامفترق منه إلا وهو موهوم فيه الاجتماع والائتلاف إلى غيره من أشكاله ، ولا مجتمع منه إلا وهو موهوم فيه الافتراق ، وأنه متى عدم أحدهما عدم الآخر معه ، وأنه إذا اجتمع الجزءان منه بعد الافتراق فمعلوم أن اجتماعهما حادث فيهما بعد أن لم يكن ، وأن الافتراق إذا حدث فيهما بعد الاجتماع فمعلوم أن الافتراق فيهما حادث بعد أن لم يكن ، وإذا كان الأمر فيما فى العالم من شيء كذلك ، وكان حكم مالم يشاهد وما هو من جنس

ما شاهدنا فى معنى جسم أو قائم بجسم، وكان مالم يخل من المحدث لاشك أنه محدث بتأليف مؤلف له ، إن كان مجتمعا ، وتفريق مفرق له إن كان مفترقا ، وكان معلوما بذلك أن جامع ذلك إن كان مجتمعا ، ومفرقه إن كان مفترقا ، من لا يشبهه ولا يجوز عليه الاجتماع والافتراق ، وهو الواحد القادر الجامع بين المختلفات ، الذى لايشبهه شىء وهو علی كل شیء قـدير . فتبين بما وصفنا أن بارىء الأشياء ومحدثها كان قبل كل شىء ، وأن الليل والنهار والزمان والساعات محدثات ، وأن محدثها الذى يدبرها و يصرفها قبلها أن كان من المحال أن يكون شىء يحدث شيئا إلا ومحدثه قبله . و إن فى قوله تعالى ذكره (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت و إلى السماء كيف رفعت و إلى الجبال كيف نصبت و إلى الارض كيف سطحت) لأبلغ الحجج ، ودل الدلائل لمن فكر بعقل واعتبر بفهم على قدم بارئها وحدوثها . وكل ما جانسها ، وأن لهـا خالقا لا يشبهها ، وذلك أن كل ما ذكر ربنا تبـارك وتعالى فى هذه الآيات من الجبال والأرض والابل فان ابن آدم يعالجه و يدبره بتحويل وتصريف ، وحفر ونحت وهدم ، غير ممتنع عليـه شىء من ذلك ، ثم إن ابن آدم مع ذلك غـير قادر على إيجاد شىء من ذلك من غير أصل . فعلوم أن العاجز عن إيجاد ذلك لم يحـدث نفسه ، وأن الذى هو غـير ممتنع ممن أراد تصريفه وتقليبه لم يوجده من هو مثله ، ولا هو أوجـد نفسه ، وأن الذى أنشأه وأوجد عينه هو الذى لا يعجزه شىء أراده ، ولا يمتنع عليـه إحداث شىء شاء إحداثه . وهو الله الواحد القهار . فان قال قائل فما تنكر أن تـكون الاشياء التى ذكرت من فعل قديمين ؟ قيل أنكرنا ذلك لوجودنا اتصالَ التدبير وتمام الخلق ، فقلنا لو كان المدبر اثنين لم يخل من اتفاق أو اختلاف ، فان كانا متفقين فمعناهما واحد ، و إنما جعل الواحد اثنين من قال بالاثنين . و إن كانا مختلفين كان محالا وجود الخلق على التمام والتدبير على الاتصال ، لأن المختلفين فعل كل واحد منهما خلاف فعل صاحبه ، بأن أحدهما إذا أحيي أمات الآخر ، و إذا أوجد أحدهما

أفنى الآخر ، فكان محالا وجود شيء من الخلق على ماوجد عليه من التمام والاتصال . وفى قول الله عز وجل ذكره (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) وقوله عز وجل (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) أبلغ حجة وأوجز بيان وأدل دليل على بطول ما قال المبطلون من أهل الشرك بالله ، وذلك أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غير الله لم يخل أمرهما مما وصفت من اتفاق واختلاف وفى القول باتفاقهما فساد القول بالتثنية ، وإقرار بالتوحيد ، وإحالة فى الكلام بأن قائله سمى الواحد اثنين . وفى القول باختلافهما القول بفساد السموات والأرض كما قال ربنا عز وجل (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) لأن أحدهما كان إذا أحدث شيئا وخلقه كان من شأن الآخر إعدامه و إبطاله . وذلك أن كل مختلفين فأفعالهما مختلفة ، كالنار التى تسخن والثلج الذى يبرد ما أسخنته النار : وأخرى أن ذلك لو كان كما قال المشركون بالله لم يخل كل واحد من الاثنين اللذين أثبتوهما قديمين من أن يكونا قويين أو عاجزين ، فان كانا عاجزين فالعاجز مقهور وغير كائن إلها ، وإن كانا قويين فان كل واحد منهما بعجزه عن صاحبه عاجز ، والعاجز لا يكون إلها ، فان كان كل واحد منهما قويا على صاحبه فهو بقوة صاحبه عليه عاجز ، تعالى ذكره عما يشرك المشركون . فتبين إذا أن القديم بارىء الأشياء وصانعها هو الواحد الذى كان قبل كل شيء ، وهو الكائن بعد كل شيء ، والأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ، وأنه كان ولا وقت ولا زمان ولا ليل ولا نهار ، ولا ظلمة ولا نور إلا نور وجهه الكريم ، ولا سماء ولا أرض ، ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ، وأن كل شيء سواه محدث مدبر مصنوع انفرد بخلق جميعه بغير شريك ولا معين ، ولا ظهير ، سبحانه من قادر قاهر » انتهى .

وهو كما ترى صريح فيما قلنا لمن تأمله ، وهذا إمام العارفين الثقة الحجة أبو

القاسم القشيري ينقل فى كتابه الرسالة عن جعفر الصادق الأمام الأجل وعن أكابر المتقدمين من العلماء العاملين ، والصوفية الواصلين ، أهل المكاشفات الصادقة ، قولهم بنفى الجهة والمكان والجسمية وسائر ما يستلزمها أو تستلزمه عن الحق العلى تبارك وتعالى ، لأن ذلك كله من سمات الحدوث ، وخصائص الممكنات .

﴿ زيادة تبصير وتنوير ﴾

وأنت إذا أنعمت التفقه فيما احتج به الله فى كتابه المبين ، وحكاه فيه عن المرسلين إجمالا وتفصيلا ، وجدت ذلك لائحا واضحا . فانظر إلى قوله فى أم القرآن (رب العالمين) أى موجد كل ماسواه ، ومدرجه فى الكمال شيئا بعد شىء ، كيف عبر عن هذه الأشياء بكلمة العالمين ، وهى جمع عالم ، وهو فى هذه اللغة الفصحى التى اختارها الله لهذا الكتاب المبين : مابه يعلم غيره وجعلت فيه العلامة ونصب دليلا عليه . فكأنه يقول سبحانه : لى الثناء الجميل لا يستحقه سواى لأنى أنا المنعم على كل شىء مما ترون ومالا ترون بوجوده وسائر كمالاته وقد جعلت فيه العلامات والدلائل على حدوثه وقدمى وفنائه وبقائى ، واحتياجه وإمكانه وغناى ووجوب وجودى وكمال جودى . وهذه الأمارات فيه ظاهرة بحيث تصلح للاحتجاج بها على جميع العقلاء إذا نظروا منصفين . وفكروا غير معاندين . وما هذه الآيات البينات التى يكون الكل سواء فى تعرفها إلا جعل كل شىء منها على قدر مخصوص ، وحد معين فى حجمه وأجزائه ، وشكله ولونه ومكانه وزمانه وأوصافه التابعة لذلك ، فكل ذلك شهود منها عليها للناظرين بأنها حادثة ممكنة باحداث واحد حكيم ، ومقدرة بتقدير العزيز العليم ، ومفاض عليها الخير من الجواد الكريم ، وكذلك قال تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) فقد جعلت الآية الكريمة كون السموات والارض والظلمات والنور من المحدثات المجعولات مما لايخفى على من نظر فيه .

ولذلك لم تعن ببيانه و إنما عنيت ببيان أن الخالق له هو الله وحده، وأن الكافرين المعاندين يعدلون به غيره ، أى يجعلونه مساوياً له فى بعض الصفات التى لا تنبغى إلا له عز وجل ، ولذلك عقب الجملة السابقة بقوله سبحانه (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وعلى هذا المنوال قوله تعالى لرسوله (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض) والولى هنا بمعنى المعبود ، وقول الخليل عليه الصلاة والسلام (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) وهو منه عليه الصلاة والسلام إشارة واضحة إلى أن مافى هذه العوالم من الجسمية والتركب من الاجزاء واختلاف المقادير والأمكنة قاض عليها بأنها مفطورة مخلوقة عاجزة مستفيدة وجودها وتوابعه ، وشاهد لفاطرها ومبدعها بالوحدانية فى وجوب الوجود وكال الجود على كل موجود ، ومن هذا القبيل قول الكليم عليه السلام لفرعون والملأ حوله حين تعنت فقال (وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والارض وما بينهما إن كنتم موقنين) و إنما عددناه متعنتا لأن فى قوله وأخيه عليهما السلام إنا رسول رب العالمين الحجة الكافية والبرهان الشافى ، فان معناه إنا رسول رب هذه الاشياء التى جعلت فيها العلامات الظاهرة والسمات الواضحة ، والدلالات البينة على نقصها وعجزها وحدوثها وفاقتها وشدة افتقارها فى وجودها وما يتبعه إلى رب توحد فى ملكوته وتقدس عن مشابهتها فى سمات الحدوث ودلائل العجز ، فلا يكون جسما ولا جسمانيا ، ومن ذلك النحو قوله عليه السلام حين قال فرعون من ربكما ياموسى (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وقول الرسل للمشركين (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) أفلا يكون كل هذا وهو بعض ما فى الكتاب العزيز فى هذا الموضوع قرائن مانعة من حمل ماورد فى الكتاب والسنة من الوجه ونحوه والعلو والنزول وشبههما على المعانى الحسية الجسمانية ، وصارفة له إلى ما يليق بذاته سبحانه مما يتعالى عن مشابهة الاجسام والجسمانيات ، ومنادية بأعلى صوت على من حملها على الظواهر الحسية التى تتبادر للجاهلين من العامة بقلة تفقهه فى كتاب الله

وانحرافه عن الجادة التي سلكها علماء المعقول والفقهاء في المنقول.

بلى والذي أنزل في كتابه العلم وخص العلماء المرضيين لديه بالفهم جل ثناؤه ، وهكذا اتفق سلف هذه الأمة الصالح وخلفها الموفق على صرف هذه المتشابهات عن هذه الظواهر المادية ، لاخلاف في ذلك بين أوائلهم وأواخرهم رضي الله عنهم ، وسموا من فسرها بتلك الظواهر بالمجسمة والحشوية إيماء منهم رضي الله عنهم إلى أن ما أتى به هؤلاء من التفسير من اللغو الذي لا يلتفت إليه ، والحشو الذي لايعول أهل العلم بالكتاب والسنة عليه، وسنلم بهذا الموضوع في الفصل الأخير من هذا المقصد إن شاء الله تعالى فانتظر

تتمة

ونختم هذا الفصل بذكر فتوى في هذا الموضوع صدرت من شيخ الاسلام بحق ورأس المحققين الاعلام أستاذ الأساتذة الشيخ سليم البشري تغمده الله برحمته وأعلى في الفراديس درجاته . ونص السؤال والجواب نقلا عن كتاب شمس الحقيقة والهداية في الرد على أهل الضلالة والغواية : للعلامة المحقق والتقي الموفق الشيخ أحمد بن العلامة الكبير الشيخ على بدر شيخ معهد بلصفورة وهو رافع السؤال إلى شيخ الأسلام رضي الله عنهما. قال : « ماقولكم دام فضلكم في رجل من أهل العلم هنا الذين يوصفون بالتفقه في الدين تظاهر باعتقاد ثبوت جهة الفوقية لله سبحانه وتعالى ، ويدعي أن ذلك مذهب السلف ، وتبعه على ذلك البعض القليل من الناس ، وجمهور أهل العلم ينكرون عليه . والسبب في تظاهره بهذا المعتقد — كما عرض على هو بنفسه ذلك — عثوره على كتاب لبعض علماء الهند نقل فيه صاحبه كلاما كثيرا عن ابن تيمية في إثبات الجهة للباري سبحانه وتعالى، وليكن معلوما أنه يعتقد الفوقية الذاتية له جل ذكره ، يعني أن ذاته سبحانه فوق العرش — بمعنى ماقابل التحت — مع التنزيه ، ويُخطِّئ أبا البركات الدردير رضي

الله عنه فى قوله فى خريدته

منزه عن الحلول والجهة * والاتصال الانفصال والسفه

يخطئه فى موضعين من البيت قوله والجهة وقوله والانفصال . والشيخ اللقانى فى قوله

ويستحيل ضد ذى الصفات * فى حقه كالكون فى الجهات

وبالجملة هو مخطئ لكل من يقول بنفى الجهة مهما كان قدره ، ويستدل أيضا بنص كتاب آخر غير الكتاب المتقدم ذكره ، وهو تفسير الشيخ الالوسى المسمى بروح المعانى ، عند قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) مع أن المطلع على عبارة الالوسى يجده فى آخر عبارته ذكر مايؤخذ منه أنه غير جازم بذلك . ويستدل على ذلك بمثل قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) (يخافون ربهم من فوقهم) (إليه يصعد الكلم الطيب) وبقوله ﷺ للجارية التى أراد سيدها عتقها « أين الله ؟ فقالت فى السماء » مع ماهو معلوم لفضيلتكم من أنها كانت خرساء وأشارت إلى السماء كما هو منصوص فى بعض مؤلفات حجة الاسلام الغزالى رضى الله عنه ، وقد تعرض لذلك السيد محمد مرتضى فى شرحه للأحياء . ويستدل أيضا بقوله ﷺ فى حجة الوداع « اللهم اشهد » وأشار بأصبعه إلى السماء ، ويورد على من ينازعه فى ذلك سؤال الكرامية المشهور وهو قولهم إن نفيه عن الجهات الست إخبار عن عدمه . ولا يخفى على فضيلتكم أن الكلام فى مسألة الجهة شهير ، إلا أنه من المعلوم أن قول فضيلتكم سيما فى مثل هذا الأمر هو الفصل ، وأرجو أن يكون عليه إمضاؤكم بخطكم والختم ولا مؤاخذة ، لازلتم محفوظين ولمذهب أهل السنة والجماعة ناصرين آمين» . وقوله الكرامية : نسبة إلى محمد بن كرام . كشداد كما فى القاموس

وهذا نص جوابه حفظه الله : إلى حضرة الفاضل العلامة الشيخ أحمد على بدر خادم العلم الشريف ببلصفورة :

قد أوسلتم بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٣٢٥ ه مكتوبا مصحوبا بسؤال عن حكم من يعتقد ثبوت الجهة له تعالى ، فحررنا لكم الجواب الآتى وفيه الكفاية لمن اتبع الحق وأنصف، جزاكم الله عن المسلمين خيرا « اعلم أيدك الله بتوفيقه وسلك بنا و بك سواء طريقه ، أن مذهب الفرقة الناجية وما عليه أجمع السنيون أن الله تعالى منزه عن مشابهة الحوادث مخالف لها فى جميع سمات الحدوث ومن ذلك تنزهه عن الجهة والمكان كما دلت على ذلك البراهين القطعية ، فان كونه فى جهة يستلزم قدم الجهة أو المكان وهما من العالم ، وهو ما سوى الله تعالى وقد قام البرهان القاطع على حدوث كل ما سوى الله تعالى بأجماع من أثبت الجهة ومن نفاها ، ولأن المتمكن يستحيل وجود ذاته بدون المكان مع أن المكان يمكن وجوده بدون المتمكن لجواز الخلاء ، فيلزم إمكان الواجب و وجوب الممكن وكلاهما باطل ، ولأنه لو تحيز لكان جوهراً لاستحالة كونه عرضا ، ولو كان جوهرا فاما أن ينقسم و إما أن لا ينقسم ، وكلاهما باطل ، فان غير المنقسم هو الجزء الذى لا يتجزأ وهو أحقر الأشياء ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . والمنقسم جسم وهو مركب والتركيب ينافى الوجوب الذاتى ، فيكون المركب ممكنا يحتاج إلى علة مؤثرة ، وقد ثبت بالبرهان القاطع أنه تعالى واجب الوجود لذاته ، غنى عن كل ما سواه ، مفتقر إليه كل ما عداه ، سبحانه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . . . . . . هذا وقد خذل الله أقواما أغواهم الشيطان وأزلهم اتبعوا أهواءهم وتمسكوا بما لا يجدى فاعتقدوا ثبوت الجهة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، واتفقوا على أنها جهة فوق إلا أنهم افترقوا فمنهم من اعتقد أنه جسم مماس للسطح الأعلى من العرش و به قال الكرامية واليهود ، وهؤلاء لا نزاع فى كفرهم ، ومنهم من أثبت الجهة مع التنزيه ، وأن كونه فيها ليس ككون الاجسام وهؤلاء ضلال فساق فى عقيدتهم ، و إطلاقهم على الله مالم يأذن به الشارع ، ولا مرية أن فاسق العقيدة أقبح وأشنع من فاسق الجارحة بكثير سيما من كان داعية أو مقتدى به . وممن نسب إليه القول

بالجهة من المتأخرين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى الحنبلى الدمشقى من علماء القرن الثامن ، فى ضمن أمور نسبت إليه خالف الأجماع فيها عملا برأيه وشنع عليه معاصروه بل البعض منهم كفروه ، ولقى من الذل والهوان مالقى ، وقد انتدب بعض تلامذته للذب عنه وتبرئته مما نسب إليـه وساق له عبارات أوضح معناها ، وأبان غلط الناس فى فهم مراده ، واستشهد بعبارات له أخرى صريحة فى دفع التهمة عنه ، وأنه لم يخرج عما عليـه الأجماع ، وذلك هو المظنون بالرجل لجلالة قدره ورسوخ قدمه ، وما تمسك به المخالفون القائلون بالجهة أمور واهية وهمية ، لا تصلح أدلة عقلية ولا نقلية ، قد أبطلها العلماء بمالا مزيد عليـه ، وما تمسكوا به ظواهر آيات وأحاديث موهمة كقوله تعالى (الرحمن علَى العرْش استوى) وقوله (إليـه يصعد الكلم الطيب) وقوله (تعرج الملائكة والروح إليه) وقوله (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) وقوله (وهو القاهر فوق عباده) وكحديث « إنه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة » وفى رواية « فى كل ليلة جمعة فيقول هل من تائب فأتوب عليـه ؟ هل من مستغفر فأغفرله ؟ » وكقوله للجارية الخرساء « أين الله فأشارت إلى السماء » حيث سأل بأين التى للمكان ولم ينكر عليها الإشارة إلى السماء ، بل قال إنها مؤمنة . ومثل هـذه يجاب عنها بانها ظواهر ظنية لاتعارض الأدلة القطعية اليقينية الدالة عـلى انتفاء المكان والجهة ، فيجب تأويلها وحملها على محامل صحيحة لا تأباها الدلائل والنصوص الشرعيـة ، إما تأويلا إجماليا بلا تعيين للمراد منها كما هو مذهب السلف ، وإما تأويلا تفصيليا بتعيين محاملها وما يراد منها كما هو رأى الخلف ، كقولهم إن الاستواء بمعنى الاستيلاء كما فى قول القائل :

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مُهراق

وصعود الكلم الطيب إليه قبوله إياه ورضاه به ، لان الكلم عرض يستحيل صعوده ، وقوله : من فى السماء : أى أمره وسلطانه أو ملك من ملائكته موكل

بالعذاب . وعروج الملائكة والروح إليه صعودهم إلى مكان يتقرب إليه فيه .
وقوله : فوق عباده أي بالقدرة والغلبة فان كل من قهر غيره وغلبه فهو فوقه أي عال عليه بالقهر والغلبة ، كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان ، أي أنه أقدر منه وأغلب.
ونزوله إلى السماء محمول على لطفه ورحمته وعدم المعاملة بما يستدعيه علو رتبته وعظم شأنه على سبيل التمثيل ، وخص الليل لأنه مظنة الخلوة والخضوع وحضور القلب . وسؤاله للجارية (بأين) استكشاف لما يظن بها اعتقاده من أينية المعبود كما يعتقده الوثنيون ، فلما أشارت إلى السماء فهم أنها أرادت خالق السماء فاستبان أنها ليست وثنية ، وحكم بأيمانها . وقد بسط العلماء في مطولاتهم تأويل كل ما ورد من أمثال ذلك ، عملا بالقطعي وحملا للظني عليه ، فجزاهم الله عن الدين وأهله خير الجزاء . ومن العجيب أن يدع مسلم قول جماعة المسلمين وأئمتهم ويتشدق بترهات المبتدعين وضلالتهم . أما سمع قول الله تعالى (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) فليتب إلى الله تعالى من تلطخ بشيء من هذه القاذورات ولا يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولا يحملنه العناد على التمادى والأصرار عليه فان الرجوع إلى الصواب عين الصواب والتمادى على الباطل يفضي إلى أشد العذاب (من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعا سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وصحبه أجمعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أملاه الفقير إليه سبحانه (سليم البشرى) خادم العلم والسادة المالكية بالأزهر عفى عنه آمين آمين ؟

وقول الشيخ رضى الله عنه « وذلك هو المظنون بالرجل لجلالة قدره ورسوخ قدمه » هو حسن ظن من الشيخ حمله عليه قول هذا التلميذ : والذى يطيل النظر فى كتبه وكتب تلميذه ابن القيم ـ كما فعلنا نحن ـ لا يرتاب فى قوله بالتجسيم والجهة

والتشبيه ولكنه يتبرأ من اسمه » و يقول بالتنزيه لكنه إنما يقول بلفظه و يتباعد عن القول بمعناه . وليس أحد أعرف بهذا الرجل من علماء عصره ، ولا سيما الورع الحجة المحقق الامام شيخ الإسلام التقى على بن عبد الكافى وقد كان له معاصرا ورد عليه فى حياته و بعد وفاته بعدة مصنفات . ودونك عبارة شيخ الاسلام التقى فى هذا المبتدع الغوى فى خطبة كتابه « الدرة المضية فى الرد على ابن تيمية » فى قوله بعدم وقوع الطلاق المعلق على وجه اليمين ، وأنه خرق الأجماع بهذا القول ، وكذب على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال رفع الله درجته فى المهديين ما لفظه « أما بعد فانه لما أحدث ابن تيمية ما أحدث فى أصول العقائد ، ونقض من دعائم الاسلام الأركان والمعاقد ، بعد أن كان مستتراً بتبعية الكتاب والسنة ، مظهرا أنه داع إلى الحق هاد إلى الجنة ، فخرج عن الاتباع إلى الابتداع وشذَّ عن جماعة المسلمين بمخالفة الاجماع . وقال بما يقتضى الجسمية والتركيب فى الذات المقدسة ، وأن الافتقار إلى الجزء ليس بمحال ، وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالى ، وأن القرآن محدث تكلم الله به بعد أن لم يكن ، وأنه يتكلم ويسكت ، ويحدث فى ذاته الارادات بحسب المخلوقات ، وتعدى فى ذلك إلى استلزام قدم العالم ، والتزمه بالقول بأنه لا أول للمخلوقات فقال بحوادث لا أول لها ، فأثبت الصفة القديمة حادثة ، والمخلوق الحادث قديما ، ولم يجمع أحد هذين القولين فى ملة من الملل ، ولا نحلة من النحل ، فلم يدخل فى فرقة من الفرق الثلاثة والسبعين التى افترقت عليها الأمة ، ولا وقفت به مع أمة من الأمم همة . وكل ذلك و إن كان كفرا شنيعاً مما تقلُّ جملته بالنسبة إلى ما أحدث فى الفروع » اه وهى رسالة نفيسة أجاد فيها رضى الله عنه الرد عليه و بيان الحق فى المسألة وقد طبعت بدمشق . وفى التحقيق الدقيق الذى قام به العلامة الكوثرى فى كتابه تكملة الرد على نونية ابن القيم المطبوع مع السيف الصقيل ما يغنينا عن الاطالة فى شرح حال هذا الرجل وشيعته . أجارنا الله وسائر المسلمين من اتباع الهوى ،

وثبتنا على الهدى بجاه نبيه نبي الرحمة عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأنمى البركات .

﴿ فصل ﴾

ومجمل القول في هذا الباب أن صفات المحدثات على قسمين : القسم الاول ما يدل على الحدوث والامكان والافتقار والاحتياج من حيث ذاته وما هيته أو ملزوماته أو لوازمه المساوية كالكون في الجهة والمكان ، وكالصغر والكبر والجسمية وقبول الانقسام . فهذا مختص بالكائنات لا يجوز أن يتصف الخالق منه بشيء ثم منه ما يكون القول به في الله كفرا إجماعا ، ككونه والداً أو مولوداً أو ذا صاحبة أو له شريك ونحو ذلك من كل ما النقص فيه ظاهر جلي ، ومنه ما اختلف في كفر القائل به ككونه تعالى في جهة الفوق ينزل و يصعد ، إلى أشباه هذا مما يحتاج إلى فضل تأمل : على أقوال ليس هذا محل بسطها ، أرجحها أن ذلك ضلال و بدعة وفسق شنيع ، أشد من فسق الجوارح بكثير ، . وقد يعذر العامى في الجهل ببعض ذلك ، وأما من ارتفعت درجته عن العامية فلا يعذر و إنما يعزر ، فان كان داعية إلى رأيه كان الذنب أعظم والأمر أخطر — عياذاً بالله من ذلك — والقسم الثاني : ما لا يدل على ماسبق من حيث ذاته بل من حيث نقصه عن الدرجة العليا في كماله كالوجود والحياة والعلم والارادة والقدرة وأشباهها من كل صفة هي من حيث ذاتها كمال . فهذا القسم هو للحق تعالى بالأصالة على أكمل درجاته وأبعدها عن شوب النقص ، وأرفعها عن الامكان ولوازمه ، واجب بوجوب موصوفه تبارك وتعالى قديم بقدمه باق ببقائه ، أما ما للخلق منه فهو له بالعرض حادث فيه باحداث الحق ممكن غير واجب ، على درجة نازلة لائقة بحال الممكن ، بحيث لا نسبة بين ما اتصف به الممكن منه وما اتصف به الحق جل وعز ، وأين وجودٌ ممكنٌ حادث قابل للزوال غير مملوك للمتصف به حين اتصافه به من الوجود الواجب الأزلي الأبدي الذي يجل عن الابتداء والانتهاء ، و يرتفع عن قبول الانتفاء ؟ وأين ما للكائنات من العلم الحادث المخلوق القليل الضئيل من علم الحق الواجب المحيط

الأكمل ؟ وهكذا سائر الصفات التي هي من هذا القسم فانتفت المشابهة بين وجودنا ووجوده ، وحياتنا وحياته ، وعلمنا وعلمه ، إلى سائر هذا النحو من هذه الصفات ، وكذلك قال المحققون : إنه لا مشابهة بين هذا النوع من الصفات للممكن وبين الكمالات التي للغني الحميد الواجب ذاتا وصفات ، إلا في مجرد الاسم ولا اشتراك إلا في اللفظ فقط . وبهذا يبين لك معنى قوله تعالى في صفة ذاته العلية وكمالاته المقدسة (ليس كَمِثْلِهِ شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ) (هو الحي) (وهوَ اللطيفُ الخبيرُ) (إنه هو السّميع العليمُ) (وهوَ العليمُ القديرُ) (لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) إلى أمثال هذه الآيات الشريفة من كل ما دل على انحصار هذه الصفات فيه عز وجل ، وقصرها عليه . ولبعد ما بين حقائق هذه الصفات في الممكن وحقيقتها في الواجب ، قال بعض الفضلاء إن إطلاق الوجود والحياة والعلم ونحوها على ما للممكن ما هو إلا بالمجاز .

﴿ مطلب في بيان وحدة الوجود ﴾

ولذلك أيضا قال كثير من صفوة العارفين بوحدة الوجود ، والكمالات الراجعة إلى جهات الوجود ، كالحياة والعلم ، لا على المعنى الذي تفهمه الزنادقة ، ويدعو إليه الاباحيون ، بل على معنى أن وجود الممكن وحياته وعلمه إلى آخره ، بالاضافة إلى وجود الحق وحياته وعلمه ، وسائر كمالاته يكاد يبلغ حد العدم . والتعريج في تفسير الوحدة على غير هذا دخول في مسالك ضيقة ، وسلوك في مضايق تفضي إلى أخطار تُحل من أصيب بها دار البوار ، نسأل الله السلامة . وأرجو بعد هذا البيان لهذين القسمين أن تكون قد تكشفت لك تلك المغالطة التي كثيرا ما توجد في كتب الحشوية ، ويفوه بها بعضهم الآن في مناظرة أهل السنة ، وأن يكون قد افتضح لك أمرها وبان عوارها ، وهو قولهم إن الوجه والعينين واليدين والقدمين والساق صفات كما أن الحياة والعلم والارادة والقدرة صفات ، وقد

قلتم بها فى ذات الله ، فلماذا لاتقولون بتلك الصفات الوجه وماذكرمعه ؟ (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ؟ فكما قلتم له علم لا كالعلوم ، وقدرة لا كالقدر ، فقولوا له وجه لا كالوجوه ، و يد لا كالأيدى ، و رجل لا كالأرجل وساق لا كالسوق ، و يتوسعون فى ترويج هذا الكلام بما شاء لهم الهوى وأشربوا فى قلوبهم من التجسيم والتشبيه ، حتى انخدع بهذا الكلام من أهل الفضل من تروج عليه الحيل ، و يغره الزخرف من القول ، ويزيد فى رواج هذا الزخرف أن هذه العبارة (له وجه لا كالوجوه) توجد من بعض الأكابر المنزهين للحق عن الأجزاء والجسمية كما هو الحق ، وهى من الحشوية مغالطة مفضوحة و باطل مكشوف للناقد البصير ، فأن الوجه والعين واليد والرجل والساق أجزاء وأبعاض وأعضاء لما هى فيه من الذوات ، لا معان وأوصاف تقوم بموصوفاتها ، فأين هى مما ألحقوها به من الحياة والعلم والأرادة والقدرة ؟ وهل هذا إلا كتشبيه العالم بالعلم والابيض بالبياض ؟ وهل تسميتهم لها بالصفات إلا ستر لموقفهم من التشبيه بما لا يسترهم عن ذوى الأنظار النافذة . وتحجب عن سهام النقدة من أهل السنة الراسخين فى علم الكتاب العزيز بنسج العنكبوت ، وهو كما علمت لا ينفعهم ولا يدفع عنهم منها شيئا ، فأن تهرب منهم متهرب — وكثيرا ما يفعلون — فقال : إنا لانريد بالوجه وأخواته ماهو أجزاء وأبعاض ،بل نريد ما هو صفات حقيقة كالعظمة والملك والبصر والقدرة ونحوها ولكنا لا نعين المراد ، قلنا : مرحبا بالراجعين إلى الحق ، و بشرى بالرجوع إلى صميم الأسلام ولب العلم ، والسلفية الحقة ، ولا نزاع بيننا و بينكم فقد انصرفتم عن الحشوية ، ولكنهم والأسف ملء فؤاد ناعليهم ، على ذلك لا يثبتون ، وما أسرع ما تراهم إلى القول بالتجزئة والتشبيه يرجعون ، فنعوذ بالله تعالى من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

﴿ تنبيه مهم ﴾

إذا سمعت فى عبارات بعض السلف إنما نؤمن بان له وجها لا كالوجوه ويدا

لا كالأيدى فلا تظن أنهم أرادوا أن ذاته العلية منقسمة إلى أجزاء وأبعاض . فجزء منها يد وجزء منها وجه غير أنه لا يشابه الأيدى والوجوه التى للخلق حاشاهم من ذلك ، وما هـذا إلا التشبيه بعينه ، وإنما أرادوا بذلك أن لفظ الوجه واليد قد استعمل فى معنى من المعانى ، وصفة من الصفات التى تليق بالذات العلية كالعظمة والقدرة ، غير أنهم يتورعون عن تعيين تلك الصفة تهيبًا من التهجم على ذلك المقام الاقـدس ، وانتهز المجسمة والمشبهة مثل هـذه العبارة فغرروا بها العوام ، وخدعوا بها الأغمار من الناس ، وحملوها على الأجزاء فوقعوا فى حقيقة التجسيم والتشبيه ، وتبرؤا من اسمه ، وليس يخفى نقدهم المزيف عـلى صيارفة العلماء ، وجهابذة الحكماء ، ويدلك على إرادة السلف ما قلنا مانقله الذهبي نفسه فى كتابه الذى سماه « العلو » عن الامام مالك وشـيخه ربيعة ونظرائهما أنهـم قالوا حين سئلوا عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ (والكيف غير معقول) وكذلك نقل الذهبي بالسند فى هذا الكتاب عن أبى عبد الله الحاكم وأبى زرعة اتفاق جميع فقهاء الأمصار من أهل تلك الأعصار أنهم يؤمنون بهذه الصفات من غـير كيف ، فانظر كيف نفوا الكيف مجمعين وهو صريح فى أنها ليست أجزاء ولا جسمانية فان الاستواء الجسمانى والوجه الجسمانى وما إليه لابد لها من الكيف قطعا ، إذ هو لازم من لوازم ذاتها لذاتها ، ونفى لازم الماهية لذاتها يستلزم نفيها عنـد جميع المنصفين من العقلاء الذين لم يصابوا بالأهواء . وانظر كيف سموها صفات ولم يسموها أبعاضا وأجزاء .

والخلاصة أنه يندفع عنك أيها الطالب لمعرفة مذهب السلف الصالح الوهم بأمرين : إجماعهـم على نفى الكيف ، بل تصريحهم بأن الـكيف غير معقول . والتسمية لها بالصفات ، والعجب أن الذهبي ينقل ما هو حجة عليـه ، يظن أنه حجة له ، وكذلك يفعل ابن تيمية عـلى ذكائه ويزيد على ذلك كأسـلافه نقل الطامات عن الأئمة بأسانيـد فيها القائلون بالجسمية والدعاة إليها . وما أبدع

ما قال الامام المحدث جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى الحنبلى المتوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة فى كتابه الذى صنفه فى الرد على جهلة الحنابلة المسمى (دفع شبه التشبيه) حيث قال : « وقد وقع غلط المصنفين الذين ذكرتهم فى سبعة أوجه » وعدها إلى أن قال « والسابع أنهم حملوا الأحاديث على مقتضى الحس ، فقالوا ينزل بذاته ، وينتقل ويتحول ، ثم قالوا لا كما يعقل فغالطوا من يسمع ، وكابروا الحس والعقل ، فحملوا الأحاديث على الحسيات فرأيت الرد عليهم لازما لئلا ينسب الامام أحمد رحمه الله إلى ذلك » اه والمصنفون الذين ذكرهم هم الحسن بن حامد وتلميذه أبو يعلى محمد المشهور بابن الفراء ، وهو غير الحافظ أبى يعلى أحمد بن على الموصلى صاحب المسند ، وأبو الحسن على الزاغونى وهو من شيوخ المصنف ، وقد قال فيهم قبل ما نقلناه عنه بورقتين « إنهم صنفوا كتبا شانوا بها المذهب » - يعنى مذهب الامام أحمد - ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس » إلى إن قال « ثم إنهم يرضون العوام بقولهم لا كما يعقل » إلى أن قال « ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعانى الواجبة لله تعالى » الخ . وهو كتاب لا يستغنى عنه من ابتلى بصحبة مبتدعة عصرنا من هذا الصنف بصرهم الله . وقد مر لك فى هذه الرسالة من تلك النصوص الشريفة الصارفة عن الظواهر الحسية إلى المعانى اللائقة بالذات العلية ما فيه المقنع إن شاء الله

﴿ فصل ﴾

(فيما يختص به عز وجل من الصفات الواجبة له على ما يدل عليه القرآن العظيم ويشهد به كل ذى عقل سليم)

قد سبق القول أن ماعداه عز وجل منه ما هو ممكن بالبداهة ، ومنه ماهو ممكن بالنظر الصحيح ، ودللناك على براهين العقل والنقل على ذلك من القرآن المجيد ،

وأن ما اختصت به من الصفات ينادى بحدوثها ، وحدوثها يدل دلالة لا لبس فيها على إمكانها ، وأن الممكن لا يترجح وجوده على عدمه ، ولا يبرز من العدم إلى الوجود إلا بمن علا عن دوائر الامكان ، وثبت له وجوب الوجود ولوازم ذلك الوجود الواجب ، وتقرر أن وجود الممكن مرآة للواجب جل شأنه ، فأول ما يتراءى لك فى مرايا الممكنات من صفاته عز وجل هو وجوب وجوده . والقرآن الكريم قد أفاد هذه الصفة العلية له عز وجل فى مواضع كثيرة جداً بأساليب رائعة متنوعة ، وعبارات تمر إلى القلوب من الآذان بلا استئذان ، فمن ذلك قوله عز وجل (كل شىء هالك إلا وجهه) وقد سبق فى المقدمة بيانه مستوفى ، ومن ذلك قوله عز وجل (هو الأول والآخر) وهى جملة معرفة الطرفين ، فهى تفيد أن الأول هو لا سواه ، وأن الآخر هو لا غيره ، ولا يكون ذلك كذلك إلا إذا كان الوجود لازما له بلا ابتداء ولا انتهاء ، وذلك هو معنى وجوب الوجود . ومن ذلك قوله تعالى (الله خالق كل شىء) والخالقية للأشياء لا تكون إلا وصفا لمن وجب وجوده ، فإن الممكن لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . ومن ذلك قوله تعالى وهو أظهر وأبهر وأجمع لمعالى الكمالات الربانية ، ونفى سمات الحدوث والامكان عنه (إنّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الحميدُ) وقد زاده تأكيداً حيث قال فى آية أخرى (و إن اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فجمل الفقر لكل ما عداه ، والغنى كله فى أعلى درجاته له دون ماسواه ، تلك كلمة أجمع كل العقلاء عليها و إن تقاصر بعضهم عن العلم بكثير مما انطوت عليه ، فضلوا وأضلوا ، فانها تدل بأجلى بيان على وجوب وجوده تعالى ولوازم هذا الوجود من القدم والبقاء ونفى سمات الحدوث من الصغر والكبر والكون فى الجهة والمكان إلى آخر ما عددنا فى الفصول السابقة ، فان للواجب أحكاماً لا تنفك عنه من حيث هو واجب . فمنها القدم والبقاء فانهما لو انتفيا أو أحدهما لكان هذا الموجود ممكنا ، فان ما ليس بقديم هو الحادث ، وقد سبق لك مراراً

أن الحادث لا يكون إلا ممكنا ، وكذلك ما يقبل الفناء ، فان وجوده لا يكون لازما من لوازم ذاته لذاته ، فيكون ممكنا لا محالة ، وقد ثبت للحق وجوب الوجود فوجب له القدم والبقاء ، ومن أحكام الواجب الوحدة فى ذاته بمعنى نفى التركب عنه ، ونفى الامتداد وقبول الانقسام ، فانه لو تركب تعالى لكان فى حاجة إلى الأجزاء التى يتركب منها ، و إلى من ركبه ، وذلك من سمات الحدوث ، والحدوث فرع عن الامكان . وقد دل الكتاب العزيز والعقل الصحيح على أنه واجب الوجود ، ولا يكون الحق تعالى صغيراً ولا كبيراً كبرَ الأجسام ، ولا يجوز عليه الامتداد ولا قبول الانقسام ، ولا الجسمية ولا شىء مما يستلزمها من المقادير والجهات والأمكنة ، و إلا لتطرقت الحاجة إليه ، وكيف وهو الغنى الحميد على الاطلاق . وهذه الكلمة الشريفة ليس فيها ذلك فقط بل فيها أن له الحياة والعلم والارادة والقدرة والسمع والبصر والكلام فى أكمل مراتبها وهى المرتبة اللائقة بوجوب وجوده عز وجل . ووجوب الوجود يستدعى وحدانيته عز وجل فى الألوهية وخصائصها . ودونك آيتين كريمتين تجمع إحداهما صفات الجلال ، والأخرى صفات الكمال التى يجب إثباتها لذى الجلال والاكرام . فأولاهما قوله تعالى : (ليس كمثله شىء) والأخرى قوله عز وجل (وَلَهُ المثَلُ الأَعلَىٰ فى السموات والأَرْضِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ) فقوله تعالى : (ليس كَمِثْلِهِ شىءٌ) نفت أن يكون له شبيه على أبلغ وجه بطريق الكناية ، فان معناها المراد : ليس كهو شىء ، وليس معناها أن له مثلا ولا يشبه المثل شىء فهذا ما تأباه اللغة كل الاباء . فان العرب تقول : مثلك لا يبخل ومثلك من يجود ، وهى تريد نفى البخل عن المخاطب ، و إثبات الجود له ، ومن لم يتضلع من علم العربية وأسرار بلاغتها ضل فى فهم الكتاب العزيز ضلالا بعيداً . وهو يحسب أنه على هدى مستقيم .

وقوله جل شأنه : « وله المثل الأعلى » دل على أنه المتصف بكل كمال يليق بقدس ذاته وجلالة صفاته ، والمثل هنا بمعنى الوصف العجيب الشأن ، وقد وصف

بالأعلى وهو من علو الرتبة ، وقدم فيه الخبر للاشارة إلى الاختصاص ، وتمم الكلام بقوله فى السموات والأرض ، لأيضاح أن اختصاصه بذلك أمر ظاهر فى العوالم كلها ، نادى به لسان حالها ، ونطق به مؤمنوا أهلها . وغير خفى أن هذه العبارة التى لا يفى التعبير ببيان منتهى جزالتها وارتفاع بلاغتها ، تدل ذا اللب على اتصافه تعالى بالوجود الواجب ولوازمه من انتفاء الأولية والتعالى عن النهاية ، والتقدس عن سمات الحدوث ولوازم الأمكان : من الحدود والمقادير والأمكنة والجهات والانفراد بما ذكر ، وبالحياة المستغنية عن النفس - بسكون الفاء - والنفس بفتحها ، والعلم الأكمل المحيط ، والأرادة النافذة ، والقدرة التامة المقدسة عن الحاجة إلى الآلات ، والحكمة الشاملة والسمع والبصر والكلام المتعاليات عن الجوارح والقيود التى تكون فى المحدثات الخ ، مافصله علماء التوحيد فى المطولات . شكر الله سعيهم . وبهذا كله تعلم وفقك الله أن ما اتفق عليه أهل الحق مما أشرنا إليه فى هذه الرسالة من وجوب تنزهه سبحانه عن أضداد تلك الكمالات العليا ، ووجوب اتصافه بما دخل من الصفات فى المثل الأعلى ، هو ما ينطق به القرآن الحكيم لمن أوتى الفهم فيه من أهل العلم ، فلا يهولنك ماتسمع من تهويش مبتدعة العصر تبعا لأسلافهم ، بتسمية المنزهين للحق عن الجهة والمكان معطلة وجهمية ، وتلقيب القائلين ببدعتهم بالموحدين والمثبتين ، كما لقب المعتزلة أنفسهم بالعدلية ، ولقبوا أهل السنة المحققين المؤمنين بالقدر بضد ذلك اللقب ، فلا يصرفنك النبز بالألقاب إلى الانحراف عن الحق الصراح الذى أرشد إليه كتاب الله وأوضحه أتم إيضاح .

﴿ فصل فى الوحدانية وأن دليل القرآن عليها برهانى لا خطابى ﴾

اعلم أن التوحيد الذى جاءت به المرسلون وبينه خاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام أتم بيان ، ونطق به القرآن وبرهن عليه أسطع برهان ، هو أنه تعالى واحد

فى ذاته واحد فى صفاته ، ولا خالق سواه ولا يستحق العبادة إلا هو ، والكلمة الطيبة لا إله إلا الله تتضمن أقسام التوحيد كلها . وقد أحسن البيهقى بيان ذلك فى كتابه الأسماء والصفات . أما وحدانيته فى ذاته سبحانه فمعناها أن ذاته العلية لا تتركب من أجزاء مادية ولا عقلية ، ولا من أصول غير مادية ، فلا تحوم حول حماها المقادير والمساحات والأشكال ونحوها ، وقد برهنه القرآن ببيان أن له سبحانه الغنى الأكمل ووجوب الوجود . والتركبُ فى الذات واتصافُها بالمقدار ولوازمه يستلزمان الحاجة إلى الغير والافتقار إلى السوى ، وينافيان وجوب الوجود ، ويقتضيان الاتصاف بالامكان ، تعالى الله عن ذلك كله ، فهو واجب الوجود ، وهو الأول والآخر وهو الغنى الحميد ، وقد مر مفصلا فى الفصل الأول من هذا المقصد وفيما قبله من المقدمة . وأما أنه واحد فى الصفات فهو أنه سبحانه لا ثانى له فى وجوب الوجود وما يستلزمه من الكمالات العليا اللائقة بمرتبة وجوده الأعلى : من الحياة والعلم والارادة والقدرة وسائر مامر من الصفات ، وبينه بعض الأفاضل كما فى شرح الدوانى للعضدية ، وحواشيه ، بأن كون الشىء منفرداً فى نوع من الأنواع بحيث لا يوازيه فرد من أفراد ذلك النوع فيه ، قاض بكونه أكمل فى ذلك النوع بالنسبة إلى سائر الأفراد : المعدوم المطلق فى العدم ، والموجود المطلق فى الوجود ، والعالِم المطلق فى العلم ، وهكذا ، فكون الشىء منفرداً فى أمر أكمل وأولى بذلك الشىء ، فكون الواجب منفرداً فى مرتبة الوجود أو شىء من متعلقاتها ، أكمل له من أن يشاركه غيره فى تلك المرتبة ، والواجب يجب أن يكون فى أعلى مراتب الكمال لاستغنائه الغنى المطلق ، فيجب أن يكون منفرداً فى جميع الكمالات ، فيكون واحد كل نوع من الوجود ولوازمه من سائر الكمالات ، فلا يكون له مشارك فى وجوب الوجود ولوازمه ، فهو واحد والكل دونه . اه . وكأن هذا البرهان الشريف مقتبس مما أشار إليه القرآن الكريم بقوله (ليس كمثله شىء) وقوله (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض

وهو العزيز الحكيم) وقد مر شرحهما قريبا ،

وإذ قد ثبتت وحدانيته بما ذكرلزم أنه لا خالق سواه ولا رب غيره ، لما مر أن الايجاد والاحداث يستحيل أن يكونا من الممكن فتعين أن يكونا من الواجب الذى لا شريك له فى وجوب الوجود وتوابعه .

﴿ مطلب ﴾

﴿ فى بيان أن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلازمان لا ينفك أحدهما عن صاحبه ﴾

وإذا بان أنه لا خالق سواه ثبت قطعاً أنه لا يستحق العبادة غيره ، فأن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية — أى استحقاق العبادة — متلازمان عرفا وشرعا ، فالقول بأحدهما قول بالآخر ، والاشراك فى أحدهما إشراك فى الآخر ، فمن اعتقد أنه لا رب ولا خالق إلا الله ، لم ير مستحقا للعبادة إلا هو ، ومن اعتقد أنه لا يستحق العبادة غيره كان ذلك بناء منه على أنه لا رب إلا هو ، ومن أشرك مع الله غيره فى العبادة كان لا محالة قائلا بربوبية هذا الغير ، هذا ما لا يعرف فى الناس سواه ، فأن ما لا تعتقد له ربوبية استحال أن يتخذ معبوداً ، ولهذا نجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن أرسلهم جل جلاله يكتفون فى الدعوة إلى التوحيد بأحدهما ويضعون كلا منهما موضع الآخر ، اكتفاء بشدة التلازم بينهما فى العقول ، وأن القول بتوحيد الربوبية هو إقرار بتوحيد الألوهية وبالعكس وإليك البيان من القرآن والسنة : أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، فماذا كانت صيغة العهد بنص القرآن ؟ هكذا (ألست بربكم) ولم يقل بآلهكم ، وجعله سبحانه حجة على من أشركوا به فى العبادة حيث قال (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل) الآية . أليس هذا صريحا فى أن أخذ العهد بتوحيد الربوبية هو أخذ للعهد بتوحيد العبادة ؟ هذا ما لا خلاف فيه بين العلماء من زمن الصحابة

إلى عهدنا هذا ، بله رجلا كان في القرن الثامن الهجري وشايعه من انخدع بآرائه ، ماذا قال نبي الله نوح لقومه الوثنيين ؟ فقلت استغفروا ربكم ، وأقام لهم البرهان على توحيد الربوبية ، لما تقرر في عقول الناس أنها لا تعبد غير الله إلا إذا أشركت هذا الغير في الربوبية ، فإذا انمحى عنها هذا الاشراك تبعه التوحيد في العبودية . ماذا قال إبراهيم لذلك الذى حاجه في ربه ؟ قال ربي الذى يحيي ويميت ، وقال عليه السلام لقومه تنزلا معهم ليهديهم إلى الحق : هذا ربي ، هذا ربي ، ولم يقل إلهي ، وكان نهاية الحجة أن قال (إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض) وما هذا إلا توحيد الربوبية المستلزم في كل عقل إذا سلمه توحيد الالوهية . وقال الخليل عليه السلام أيضا لعباد الاصنام : (بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) الآية . أليس هذا إضراباً إبطاليا لما اعتقدوه من ربوبية الأصنام ؟ وأقام الدليل الحسي عليه السلام على عجز الاصنام بتكسيره إياها بياناً لعابديها أنها لو كانت أرباباً كما اعتقدوا لاستطاعت الدفع عن نفسها ، فاذا بطلت ربوبيتها زالت عن المخاطبين عبادتها ، وذلك جلى لا يخفى والمناقشة فيه مكابرة . وقال موسى وهارون عليهما السلام : إنا رسول رب العالمين . ولما سألهما قال رب السموات والأرض وما بينهما ربكم ورب آبائكم الأولين رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . وقال فرعون مرة : ما علمت لكم من إله غيرى ، وقال أخرى : أنا ربكم الأعلى ، ويقول الله لعيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمي إلهين من دون الله ؟ فيقول بعد كلام حكاه عنه التنزيل ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربي وربكم . فلو كان توحيد الربوبية لا يستلزم عندهم توحيد الالوهية كما زعم الخراصون لتوجه على المسيح عليه السلام أن يقال له : ما أديت رسالتنا فانا إنما أرسلناك بتوحيد الألوهية ، ولم نكلفك ببيان توحيد الربوبية لانهم مقرون به ، ولكنا نرى الله تعالى قد قبل منه هذه الحجة أفلا يكون في ذلك على ما نقول أبين حجة وعنه عليه السلام

فى موضع آخر من الكتاب العزيز : وإن الله ربى وربكم فاعبدوه . بفاء التفريع والترتب المفيدة للاستلزام ، ويقول القرآن فيما أمر به الرسول الأعظم تارة : قل أغير الله أتخذ وليا ؟ أى معبوداً ، وأخرى . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ ؟ وحديث المسألة فى القبر الذى يكاد يبلغ حد التواتر المعنوى مشهور ، وفيه أن الملكين يقولان للميت : من ربك ؟ ولا يقولان من إلهك ؟ فاذا أجابهما : « الله ربى » اكتفيا منه فى التوحيد بهذا الجواب ، ولم يقولا له هذا توحيد الربوبية وهو لا ينجيك ، فأول ماخاطب الله الارواح قال ألست بربكم واكتفى منهم بالاقرار بوحدانيته فى الربوبية ، وأول ماتسأل الموتى فى قبورها عن ربك ؟ واكتفى منهم بالاقرار بأنه ربهم ، أفبعد هذا يتشكك متشكك ؟ ولكن الله يهدى لنوره من يشاء

وكذلك رتب القرآن اللوازم الفاسدة على نفى الوحدانية فى الالوهية بيانا منه تعالى أن الشركة فى الالوهية تستلزم الشركة فى الربوبية عند المشركين لا محالة ، تعالى الله أن يكون له شريك ، فانظر ماذا قال سبحانه (وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) ومعناه عند أولى النهى : أنه لو كان معه إله لكان ربا وخالقا ، ولو كان معه ذلك لذهب الخ وإنما يكون الدليل تاما إذا صحت الملازمة وكانت مسلمة عند المخاطبين ، ويأبى الله أن تكون حجته إلا تامة (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) ومعنى هذا أن القرآن يقرر أن من أشرك فى استحقاق العبادة كان مشركا لامحالة فى الربوبية وكذلك قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ولم يقل أرباب لتلازم الربوبية والالوهية نفيا وإثباتا . وتقرير هذا البرهان الشريف : أنه لو كان معه شريك فى الألوهية لكان شريكا فى كونه ربا وخالقا ، ولو كان كذلك لكان شريكا له فى وجوب الوجود ، ولو كان ذلك كذلك لفسدت العوالم ، ولما كان لها نظام ، بل ما كان لشىء منها وجود ، فهنا ثلاث ملازمات ، وبيان الأولى منها ماتقرر

فى العقول من أن ما كان ربا كان إلها و بالعكس ، ولا يعرف العقلاء سوى هذا ، ولولا مشاغبة هذا المجترح لهذه البدعة وفريق المخدوعين برأيه لكان الكلام فى إيضاحها ضربا من العبث . و بيان الملازمة الثانية ماتقدم من أن الممكن لذاته لا يملك الوجود فضلا عن الايجاد ، فمتى كان الشىء خالقا وموجدا كان لامحالة واجبا لاممكنا ، وقد فصلناه فيما سبق وقررناه وكررناه . وأما بيان الملازمة الثالثة وهى أنه لو تعدد واجب الوجود ما كان هذا النظام ، بل ما كان وجود لكائن من الممكنات ، فانه محتاج إلى شئ من البسط ، فافتح قلبك واستعن بالله ثم انظر معى إلى ماتعرف من الحقائق ولوازمها ، فستجد أن الحقائق إذا اختلفت كانت لوازمها مختلفة لامحالة ، كالحار يلزمه التسخين ، والبارد يلزمه التبريد ، و إذا وجدت لازما واحدا لحقيقتين فلا يكون لازما لهما من حيث ما اختلفا فيه ، بل هو لازم لهما من حيث ما اشتركا فيه ، فهو إذاً ليس لازما ، إلا للامر الاعم المشترك بينهما ، كالمتحرك اللازم للأنسان وغيره من الحيوان ، فهو لازم لهما من حيث الأمر الأعم وهو الحيوان ، فان حقيقة الانسان وسواه من مشاركيه فى الجنس مركبة مما به الاشتراك ومابه الامتياز ، ثم اللوازم منها مايكون لامر خارج عن الشئ وتسمى عرضية ، ومنها مايكون لذات الشئ لا لأمر خارج وتسمى ذاتية فما لزم الحقائق من حيث مابه اختلافها كان مختلفا غير متحد .وقد أراك الله ذلك فيما خلق ، فترى لكل شخص شكلا خاصا ، وترى للبياض لوازم تخصه ،وللسواد لوازم تخصه، ولكل عنصر ولكل مركب خواص تباين خواص الآخر غير أنه ليس فى الممكنات الموجودة من ذوات ولوازم إلا ماهو بالجعل كما قدمناه مفصلا فى بحث الممكنات ، وقررنا هناك أن اللزوم فى الأغلب عادى ، ومن أجل هذا جاز التخلف ، ولكنا ذكرنا ذلك هنا لترقى به إلى ماسنلقى عليك وهو أن الواجب لايجوز فى حقيقته التركب ، فأن التركب من لوازم الأمكان كما مرّ ولا يكون له شئ بالجعل ، و إلا كان ممكنا بالبداهة ، وقد سبق أن الواجب له الغنى الأتم

فكمالاته اللائقة بمرتبة وجوده لاتكون إلا لوازم ذاتية هى له بمقتضى ذاته وموجب حقيقته الخاصة . إذا فهمت هـذا وأتقنته حق إتقانه تبين لك أنه لو تعددت ذوات واجب الوجود لكانت مختلفة كل الاختـلاف متباينـة كل التباين لأنه لاتركب فى حقيقة الواجب ، حتى يكون هناك ذاتى يُشترك فيه ، ولوازم حقيقة الواجب ذاتية ، فيكون لـكل واجب لوازم تخصـه وكمالات هى له بمقتضى ذاته المباينةلذات الآخر ، ومتى اختلفت الحقائق كل الاختلاف تبعها اختلاف لوازمها وتباينهـا كل التباين ، ومن كمالات الواجب ولوازمـه الذاتيـة العـلم والارادة والقدرة كما أسلفنا ، وفعل كل إنما يكون بالقدرة على حسب الارادة ، والارادة على وفق العلم ، و وجود الكائنات ونظامها إنما هو بحسب ذلك ، فلو كان فى الوجود أكثر من واجب لتخالفت علومهم و إراداتهم حسب اختلاف حقائقهم ، وهذا اختلاف ذاتى يستحيل معه الوفاق ، ولو كان كذلك مااتحد هذا النظام الذى تراه ، بل كان مختلفا مضطربا بل لما وجد نظام ، بل لما وجد كائن من الكائنات لان السلطة على كل ممكن عامة والممكن من حيث ذاته قابل للتأثر ، والقوى فى الواجبين متكافئة متدافعة متشاكسة فأنى يوجد كائن ؟ وهانت ذاترى النظام مؤتلفا غير مختلف ، مرتبطا غـير مفكك ، أفلا ينطق ذلك بوحـدانية واجب الوجود فى ذاته العلية وكمالاته المقدسـة التى لاتصح إلا له بمقتضى ذاته وموجب حقيقته ، بلى ، فتعالى الله عما يشركون . و ربما احتاج غير اللبيب فى هـذا المقام : إلى أبسط من هذا البيان ، لكن مقام هذا الوجيز لايسمح بأكثر من هـذا ، وفيه لذى اللب مقنع إن شاء الله تعالى .

و بما سلف من التقرير تعلم أن هذا الدليل القرآنى على الوحدانية برهانى تام لاخطابى إقناعى ، وهو الذى عليه المحققون من فرسان المعقول والمدققين فى فهم المنقول ، حتى شنعوا على العلامة سـعد الدين التفتازانى فى قوله بأنه خطابى ، و بعد فلا خفاء على من تدبر كتاب الله فى أن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية

متلازمان فى نظر العقل والشرع ، فالقول بأحدهما قول بالآخر ، وانتفاء أحدهما فى اعتقاد من اعتقد الانتفاء قول منه بانتفاء الآخر ، والبرهنة على أحدهما هو استدلال على الآخر ، والقول بأن المرسلين عليهم الصلاة والسلام ما جاءوا بتوحيد الربوبية لأن الناس كانوا فى غنيـة عن بيانه ، وما جاءوا إلا بتوحيد العبادة احتجاجاً ببعض الآيات التى لم يحسنوا فهمها ، قول بما تكذبه نصوص الكتاب العزيز، ودعوى يدحضها العلم بتاريخ المشركين قديمه وحديثه ، ماحكاه الكتاب العزيز من ذلك وماعلمه الناس . هؤلاء المفتتنون بفتنة السامرى من بنى إسرائيل أشركوا العجل فى عبادة ربهم ، فقال لهم نبى الله هارون بصيغة الحصر (وإن ربكم الرحمن) يعنى لا هـذا العجل ، فهل يصح منـه عليه السلام هذا الكلام إلا إذا كان إشراكهـم فى العبادة مبنيا على الاشراك فى الربوبيـة ؟ اللهم إن القول بخلاف هذا معاندة للحق ، وانقياد لمحض الهوى ، وصح أن سائلا سأله عليه الصلاة والسلام عن وصية موجزة كافية لا يسأل بعدها أحداً غيره ، فقال له : بأبى هو وأمى ، عليه الصلاة والسلام (قل ربى الله ثم استقم) فلو كان كما يقول ذلك المفرق بين التوحيدين الذى استُحِلَّت بناء على فتياه هذه دماء لا تحصى ، حقنها الاسلام وحرمها الله ورسوله ، لكانت هذه الوصية غير كافية مؤدية لما جاء به المرسلون ، وحاشاها من ذلك ، كذلك قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) الآية ، وهذه العبارة فى موضعين من كتاب الله تعالى :فى سورة حم السجدة وسورة الأحقاف وقد رتب السعادة كلها على الاستقامة المبنية على قول (ربنا الله) دون أن يقول إلهنا ، فهل بعد الله ورسوله لأحد من قول ؟ (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى فى الخاتمة عند بيان معنى العبادة شرعا . وإنى لعلى ثقة أن هذا البيان كاف إن شاء الله لمن نور الله بصيرته ، ولم يستفحل به داء البدعة أجارنا الله منها وإياكم أهل السنة . وإن أضعاف هذا البيان لا يكفى من أشربوا فى قلوبهم حب

الانحراف عن جماعة أهل الحق ، وأغروا بالتشنيع على جماهير المسلمين وتكفيرهم ونبز أكابرهم من العلماء العاملين وأهل السنة المحققين، بأنهم أئمة الكفر والهادمون للاسلام ، والمنابذون للسنة والقرآن ، والخائنون لدين الله ، إلى أشباه ذلك مما يعبس له وجه الأسلام ، وتغضب له الحقائق ، ويلقى بذور الشقاق بين الأمة ، التي وحد الاسلام الصحيح بينها ، وأوصى الاسلام أهله بالمحافظة عليها ـ أعنى تلك الوحدة ـ فنسأل الله الكريم بنبيه العظيم نبي الرحمة أن يلهم جميع الأمة الرشد حتى تجتمع ولا تتفرق ، وتتحاب ولا تتباغض . إنه ذو الفضل العظيم .

﴿ فصل ﴾

﴿ فيما يوهم التشبيه عند العامة من ظاهر الكتاب والسنة ﴾

سبق لك فى فصول هذا المقصد أن القرآن يدل صراحة أن كل مقدر مخلوق ، وأن كل ما فى المادة من الصفات كالصغر والكبر وقبول الانقسام والسكون فى الجهة والمكان والعلو والنزول والتجزؤ وغيرها مما مرّ إنما هو من علامات الحدوث وسمات الامكان ، وبيّنّا دلالة الكتاب العزيز على ذلك دلالة لا اشتباه فيها ولا التباس ، إلا على من نبذ الفهم وأطاع الوهم واتبع الوساوس أو قلد متبعيها وتقدم أيضاً أن الاتصاف بالخالقية يدل على التنزه عن الامكان وعن كل ما يستلزمه ، ويقتضى الاتصاف بوجوب الوجود وما يستتبعه ، وأريناك كيف يفيد القرآن ذلك على أوضح وجه وأبينه ، فيكون ما أجمع عليه أهل الحق من علماء السلف والخلف من تنزه الحق عن الجهة وتقدسه عن المكان وتعاليه عن التجزؤ والتبعيض والصعود والنزول والقرب والبعد والذهاب والمجئ والحركة والسكون وما أشبه ذلك ، ما أجمع عليه أهل الحق من تعالى الملك القدوس عن ذلك كله ، ليس هو مما أخذه العلماء من فلسفة اليونان ، كما يشنع به على

القوم ابن تيمية وإنما هو من حكمة القرآن وفلسفة الاسلام لمن فقه في دين الله وأحسن تدبر كتابه كما تقدمت الشواهد على ذلك من الكتاب العزيز مشروحة مبسوطة . وهذا هو السر الذى جعلهم رضى الله عنهم فى اتفاق على أن كل مادل من الكتاب والسنة بظاهره على ما هو من صفات الجسم وسمات الحدوث ، فهو مصروف عن هذا الظاهر قطعا ، لا خلاف فى ذلك بين علماء الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أهل الفقه فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، سلفا وخلفاء ، وحجتهم فى ذلك فى كتاب الله واضحة ، وأدلتهم عليه فى آيات القرآن لائحة ، والبراهين العقلية الصحيحة به ناطقة مفصحة ، وقد أسلفنا منها فى هذه الرسالة الشيء الكثير البين فلا نعيده ، فكان ذلك قرائن صارفة لهذه النصوص عن هذه الظواهر ، إلا أن الغالب على أكثر السلف الكف عن بيان المعنى المراد اللائق بالحق تعالى من هذه النصوص ، والامساك عن تعيينه ورعاً وتهيبا لذلك المقام الأقدس ، لا سيما إن كان اللفظ الشريف يحتمل بمقتضى اللغة معنيين أو أكثر كل منها لائق بالجناب الأقدس ، وكفاً لمن لا يعرف شروط التأويل عن الخوض فيما لا يحسنه ، فان العامى الجاهل إذا سمع من العالم تأويلا لكلمة يوجب العلم صرفها عن ظاهرها ، سوَّغ لنفسه أن يقول بغير علم بماشاء له الهوى فى الكتاب والسنة ، فضل ضلالا بعيدا ، فسدُّوا الذريعة وحسموا المادة وأوصدوا الباب فى وجوه العوام حتى لا يتهجم منهم متهجم على حرَم الآيات والأحاديث الممنوع على أمثاله ، لعدم اتصافه بالمؤهلات التى يفرق بها بين ما يجوز من التأويل وما لا يجوز منه ، ولذلك كان الكثير منهم يقول « تفسيرها قراءتها » ويقولون : أمِرُّوها كما جاءت من غير كيف . فقولهم رضى الله عنهم من غير كيف ، ونهيهم عن التفسير ، صريح فى صرفها عن المعنى الظاهرى التشبيهى ، الذى يتبادر إلى الذهن العامى ، وإلا فلو كان هذا المعنى مراداً ومعتقداً للسلف كما يصرح به أدعياء السلفية ، لفسروا ولما نهوا عن التفسير ،

ولما نفوا التكييف كما هو واضح ، ولحجة الاسلام الغزالى رضى الله عنه كتاب نفيس فى هذه المسألة سماه « إلجام العوام عن علم الكلام » أفاد فيه وأجاد كعادته جزاه الله خير الجزاء ، لا غنى لمن يريد تحقيق هذا المقام عن مطالعته ومذاكرته .

﴿ فائدة مهمة ﴾

إن أهل العلم مع نقلهم عن أكثر السلف القول بالصرف عن الظواهر وعدم الخوض فى بيان المعنى المراد ، اختلفوا هل يسمى هذا الصرف مع عدم تعيين المراد تأويلا ، أولا يسمى ذلك تأويلا حتى يعين المعنى المراد ؟ وبالثانى قال كثير من أهل العلم ؛ فانهم رأوا أن التأويل هو بيان المعنى الذى يقصد من الكلام فاذا صرف الكلام عن الظاهر فقط وفوض المعنى المراد إلى قائله لم يسم تأويلا . والامر فى ذلك هين ، فان الصرف عن الظاهر متفق عليه سمى تأويلا أم لا ، فتفطن لهذه الفائدة ، فان مما يموه به المبتدعة لا سيما ابن تيمية ، نقل نفى التأويل عن السلف يلبس بهذا النقل على القاصرين عن معرفة هذه المسألة ، ويوهمهم أن السلف يحملون هذه الالفاظ على ظواهرها ، وحاشاهم من ذلك ، وإنما معنى ما نقل عنهم أنهم لا يعينون المعنى المراد ، مع الصرف عن الظواهر .

﴿ بيان ما دعا الكثير من علماء السلف والخلف إلى تعيين المعنى المراد ﴾

ولما كثر الجاهلون الذين لا خبرة لهم بما أشار إليه القرآن من أصول الدين فى باب التنزيه ، وكانوا قد جمعوا من الحديث ، ولم يكن لهم من الورع مايحملهم على الكف عن تفسير هذه النصوص ولا من الفقه فى لغة العرب ما يتنبهون به إلى غير ما يتبادر إلى أذهانهم القاصرة ، اجترؤا على تفسيرها بما ينكره أهل العلم بالقرآن ، وتزيد آخرون فى الرواية لما لا يصح ، اضطر بعض السلف إلى بيان المعنى المراد على ما يقتضيه اللسان الذى نزل به القرآن ، وتبعهم الكثير من

الخلف ، فان الخطب بالمجسمة والمشبهة كان فى أزمانهم أعم وأطم ، وتوسع منهم ناس فى التأويل ، واقتصد آخرون . ومن أحسن ما ينبغى أن يعول عليه فى هذا الباب ، بل أحسنه ما قاله الامام الحجة فى المعقول والمنقول سيف الله على المبتدعة من الحشوية وسواهم « ابن دقيق العيد » رضى الله عنه ، وهو : « أنه إن كان التأويل من المجاز البين الشائع فالحق سلوكه من غير توقف ، و إن كان من المجاز البعيد الشاذ فالحق تركه ، و إن استوى الأمران فالاختلاف فى جوازه وعدم جوازه مسألة فقهية اجتهادية ، والامر فيها ليس بالخطر بالنسبة للفريقين » اه. وهذه قاعدة تنبئ عن مزيد فضل واضعها وتضلعه فى علم الكتاب والسنة ، وتمكنه من أسرار هذه اللغة الفصحى التى نزل بها كتاب الله ، فان القول بالتأويل مطلقا بلا قيد ولا شرط كما يشاء الهوى هو خروج عن الملة ، ودخول فى الكفر والالحاد ، وأول من ابتدعه فرقة تسمى بالباطنية بدؤا يظهرون فى القرن الرابع ، يزعمون أن ظواهر الآيات غير مرادة ، فأنكروا كل شىء حتى ماعلم من الدين بالضرورة : وعلى هذا الوتر ضربت الجماعة التى سمت أنفسها إخوان الصفا فألفوا تلك الرسائل المضافة إلى هذا الاسم ، ودسوا فيها ماشاؤا من الكيد للاسلام وأهله

ثم افترق الباطنية إلى فرق تسمت بأسماء مختلفة ليس هذا محل بسطها ، ومن أحدثها عهداً فرقة البهائية ، وهم فرقة ينتسبون إلى رجل يقال له مرازا حسين . و يلقبونه بالبهاء ، يزعمون فيه مازعمت النصارى فى عيسى من الالوهية ، ويكفرون بالقرآن كله ، و يتسترون بالتأويل ، و يزعمون نسخ دين الاسلام بدينهم الذى ما أنزل الله به من سلطان . وعلى نهج هؤلاء الكفرة سارت فرقة القديانية إلا أنهم أحذق منهم ضلالا و إضلالا ، زعموا أن متبوعهم غلام أحمد القديانى — نسبة إلى قرية بالهند يقال لها قاديان — جاءته النبوة ، وتأولوا مالا يقبل التأويل وهو قوله تعالى فى نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام (وخاتم النبيين) فنعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . وقد ألفت كتب من أكابر الفضلاء

الرد على هذه الفرق ، وإنما سمينا هاتين الفرقتين لوجودهما فى عصرنا واغترار بعض الجاهلين بمظاهرهما ، ونفاقهما . فليعلموا أنهم إذا دخلوا فيهم فقد خرجوا من الإسلام وإن تسموا بأسماء المسلمين :

ولنعد بك إلى ما نحن بسبيله فنقول : كما أن التأويل بلا قيد ولا شرط ضلال أى ضلال ، فكذلك الجمود على الظاهر وترك التأويل مطلقا فسق وابتداع وربما أفضى إلى صريح الكفر ، فمن قال فى قوله تعالى (ليس كمثله شىء) إن ظاهره أن لله مثلا وليس كهذا المثل شىء ، فلنقل بظاهره كما هو ، والصرف عن الظاهر تأويل ، والتأويل بدعة وكل بدعة ضلالة ، كان مشركا بالله ، كاذباً على كتاب الله ، خارجاً على الاسلام وأهله ، منابذاً للغة القرآن . فالحق الذى لامعدل عنه هو ما قرره الامام ابن دقيق العيد . ومن تتبع براهين القرآن واستقرأ آياته العظام ، وجد كثيراً مما تشابه على من ليس فى درجته قد صار لديه محكما وزال عنه التشابه فيه ورأى كثيرا منه من القسم الأول وهو ما كان من المجاز البين الشائع فى لغة العرب ، وعلى قدر الرسوخ فى العلم يكون زوال التشابه أو أكثره عن الكثير من المتشابه . وقد مر نحو من هذا فيما نقلناه عن ابن جرير فى تفسير قوله تعالى (فيتبعون ماتشابه منه) فلا تغفل . ولما كان الراسخون فى العلم متفاوتين لاجرم تفاوتت أنصباؤهم فى زوال التشابه عنهم ، وقد جمع كتاب الاسماء والصفات للامام الحافظ أبى بكر البيهقى من علم الراسخين مالم يجمعه كتاب قبله ، ولذلك ننصح لأهل العلم الذين تأهلوا للغوص على درر الكتاب والسنة أن يقرأوه ويديموا مذاكراته لاسيما مع التعليقات التى تفضل بوضعها عليه العلامة المحقق الزاهد حفظه الله . وسنتمم هذا الفصل بذكر أمثلة تنبهك على غيرها إن شاء الله تعالى . قال الله تعالى فى عيسى (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) وقال (وكلمته ألقاها إلى مريم) قد فسرت معناها الآية القائلة (إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) فالكلمة فى عيسى مجاز

مرسل من إطلاق السبب على المسبب ، وقوله تعالى (أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله) ظاهر أن معناه فى حقه وما يتعلق به من أمره ونهيه ، وقوله تعالى فى آدم (لما خلقت بيدى) هو كناية عن أنه فاز من عنايته تعالى بما لم يفز به ملك ولا جن . وقوله فى آية أخرى فى حق آدم (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فقد سلك فيه طريق التصريح دون الكناية ، ولكل من التصريح والكناية فى الجملتين الشريفتين مقام اقتضاه يعرفه من أنعم التأمل . وقال تعالى: (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) فاسناد النفخ إليه تعالى مجازى فان المباشر للنفخ جبريل عليه السلام وهو المراد بالروح المضاف اليه تعالى للتشريف بدليل قوله تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا) الآيات كما أن قوله تعالى : (ولنجعله آية للناس ورحمة منا) فسر قوله تعالى فى عيسى (وروح منه) فان من معانى الروح ـ بضم الراء ـ الرحمة . وما أحسن ما أنشد أبو بكر بن العربى فى هؤلاء المجسمة المشبهة : ـ

قالوا الظواهر أصل لا يجوز لنا عنها العدول إلى رأى ولا نظر

بينوا عن الخلق لستم منهم أبداً ما للأنام ومعلوف من البقر

والمحققون من أكابر السلف يسلكون هذا المنهج حيث لا يكون عن التأويل معدل ، ولا لبقاء اللفظ على ظاهره محل . ودونك كلام ترجمان السلف وإمام المفسرين أبى جعفر فى الاستواء على العرش الذى دندن حوله أدعياء السلف وأغبياء الخلف ، وتشبثوا به فى القول بالجهة والمكان فى حق الله تعالى الله عما قالوا . ولا أظن منصفا ينازع فى سلفية ابن جرير رضى الله عنه . قال فى تفسير قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) فى سورة البقرة وأحال عليه بعد ذلك تفسير الاستواء على العرش حيث ذكر فى القرآن مالفظه « الاستواء فى كلام العرب منصرف على وجوه : منها انتهاء شباب الرجل وقوته فيقال إذا صار كذلك : قد استوى الرجل . ومنها استقامة ما كان فيه أود من الأمور

والاسباب ، يقال منه استوى لفلان أمره إذا استقام له بعد أود ـ والاود كالقول الاعوجاج ـ ومنه قول الطرماح بن حكيم .

طال علي رسم مهدد أبده * وعفا واستوى به بلده

والطرماح بكسر الطاء والراء وشد الميم كسنمار ، ومهدد على وزن جعفر اسم امرأة ـ يعني استقام به . ومنها الاقبال على الشيء بالفعل كما يقال استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد الاحسان اليه . ومنها الاحتياز والاستيلاء كقولهم استوى فلان على المملكة بمعنى احتوى عليها وحازها . ومنها العلو والارتفاع ، كقول القائل استوى فلان على سريره يعني به علوه عليه . وأولى المعاني بقول الله جل ثناؤه (ثم استوى إلى السماء فسواهن) علا عليهن وارتفع فدبرهن بقدرته ، وخلقهن سبع سموات . والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله (ثم استوى إلى السماء) الذى هو بمعنى العلو والارتفاع ، هربا عند نفسه من أن يلزمه بزعمه إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها ، إلى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر ، ثم لم ينج مما هرب منه فيقال له : زعمت أن تأويل قوله استوى : أقبل أفكان مدبراً عن السماء فأقبل إليها ؟ فأن زعم أن ذلك ليس باقبال فعل ولكنه إقبال تدبير ، قيل له فكذلك فقل علا عليها علو ملك وسلطان ، لا علو انتقال وزوال ، ثم لن يقول في شيء من ذلك قولا إلا ألزم في الآخر مثله ، ولولا أنا كرهنا إطالة الكتاب بما ليس من جنسه لأنبأنا عن فساد قول كل قائل قال في ذلك قولا لقول أهل الحق فيه مخالفا . وفيما بينا منه مايشرف بذي الفهم على مافيه له الكفاية إن شاء الله تعالى . » فأنت تراه لم يفسر الاستواء على العرش بالجلوس ولا بالاستقرار بل فسره بعلو الملك والسلطان ، وكذلك فسر العلو في حق الله تعالى حيث ذكر من القرآن . وقال رضي الله عنه في تفسير آية الكرسي « وأما تأويل قوله (وهو العلي) فانه يعني والله العلي ، والعلي الفعيل من قولك علا يعلو

علوا إذا ارتفع ، فهو عال وعلى ، والعلى ذو العلو والارتفاع عـلى خلقه بقـدرته ، وكذلك قوله «العظيم» ذو العظمة الذى كل شئ دونه فلا شئ أعظم منه» . انتهى

وقال رضى الله عنه فى تفسير سورة النساء «القول فى تأويل قوله تعالى (إن الله كان عليا كبيراً) يقول إن الله ذو علو على كل شىء ، فلا تبغوا أيها الناس على أزواجكم إذا أطعنكم فيما ألزمهن الله لـكم من حق سبيلا لعلو أيديكم عـلى أيديهن فان الله أعلى منكم ومن كل شىء ، وأعلى منكم عليهن وأكبر منـكم ومن كل شىء ، وأنتم فى يده وقبضته ، فاتقوا الله أن تظلموهن وتبغوا عليهن سبيلا ، وهن لـكم مطيعات فينتصر لهن منكم ربكم الذى هو أعلى منكم ومن كل شئ وأكبر منكم ومن كل شئ». وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) يقول تعالى ذكره «والله عالم ماغاب عنـكم وعن أبصاركم فلم تروه ، وما شاهدتموه فعاينتم بأبصاركم لايخفى عليه شئ لأنهم خلقه وتدبيره ، الكبير الذى كل شئ دونه المتعال المستعلى على كل شىء بقدرته ، وهو المتفاعل من العلو مثل المتقارب من القرب والمتدانى من الدنو» انتهى .

أقول: والعرب الذين نزل القرآن بلغتهم لايفهمون سوى هـذا ، فان العرش سرير الملك الذى يجلس عليه للحكم ، والاستواء عليه هو العلو عليه ، هذا هو أصل الوضع ، ثم كنوا به عن عـلو الملك والسلطان حتى صار يسـتعمل فى هذا المعنى بحيث يكون هو المقصود بالاثبات ، فاذا قيل لم يستو على العرش ، كان هذا المعنى هو المقصود بالنفى كما هو الشأن فى المعنى المـكنى عنـه وفى المعنى المجازى لايكون مورد الاثبات والنفى إلا إياها لاالمعنى المـكنى به ولا المنقول عنه كما هو مبين فى محله من علم البيان ، ومن تتبع القرآن هداه إلى ماقلنا ، فان الاستواء على العرش مذكور فى سبع آيات مقترنا بذكر فعل من أفعاله تعالى ، دال على وجوب وجوده وغناه الغنى المطلق ، وهو رفع السموات بغير عمد ، أو خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ، فقد أقام القرآن القرينة اللفظية فى كل موضع ذكر فيه الاستواء

على انه لم يُرَد ظاهره ، وإنما معناه أنه سبحانه لما انفرد بإيجاد الأشياء كلها توحد في التصرف فيها ، فكما أنه لاشريك له في الخلق لا شريك له في الملك ، ولذلك ختم بعض هذه الآيات بقوله تعالى : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) بتقديم الخبر وهو (له) على المبتدأ وهو يدل على الحصر . فالخلق ناظر إلى انفراده بخلق السموات والأرض . والأمر عائد إلى توحده بعلو الملك . وقد يذكر في غير هذه الآيات خلقه لكل شيء ويردفه بما يؤدى هذا المعنى بكناية أخرى غير كناية الاستواء على العرش، كقوله (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض) وقوله (خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل) أى المدبر للكل القائم عنهم بجلب النفع إليهم ودفع الضر عنهم وقوله : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) فانظر ماذا قال بعدها قال : (يتنزل الأمر بينهن) وهذه من روادف علو الملك وارتفاع السلطان. وعادة القرآن تصريف الآيات كما قال سبحانه (وكذلك نصرف الآيات) وهو إدارة المعنى الواحد بطرق متنوعة وأساليب مختلفة رائعة . ومن زعم أن القرآن يقول بالعلو الحسي في حق الله فما عرف الله ولا عرف كتابه ، وقد سمعت ماقال شيخ المفسرين الطبري في تفسير اسمه تعالى (العلى) وأنت لو أنعمت في مواقع هذا الاسم الكريم من كتاب الله تعالى لم تجد له إلا ما قال الحبر الطبري وهو قول محقق علماء الملة سلفا وخلفا ، فانظر فيما أتلو عليك . قوله تعالى في خاتمة آية الكرسي (وهو العلى) بعد ما مر من وصفه بالوحدانية والحياة والقيومية ، وأن كل شيء فهو له مُلكا ومِلكا ، وأنه أحاط بكل شيء علما . وأن السموات والأرض لا يثقل عليه حفظهما ولا يشق عليه . ثم عقب بعد هذا كله بقصر العلو عليه سبحانه .فبربك هل يفهم منه ذو علم إلا علو الاقتدار، وسمو الكمال الذى لايجد له مقدار كما أشار إليه الشيخ رضى الله عنه ؟ وقوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى) فهل هذا العلو الأكمل الواقع بين تسبيح اسمه

تعالى معنونا عنه بالربوبية وبين خلقه لكل شيء وتسويته إياه، وتقدير المقدرات وتهيئتها لما خلقت له الخ إلا علو الكمال؟ وهل يفهم منه علو المكان إلا من تسفل عن مقام أهل الفهم والعرفان؟ وأبصر إلى قوله (فتعالى الله الملك الحق) بعد نفي العبث عن ذاته على أبلغ وجه في الآية قبلها ومع التعبير عن ذاته بهذه الأسماء العليا: الله الملك الحق. أيخطر بعقل ذي لب أنه جلوس على عرش وارتفاع مكان؟ حاشا أن يكون ذلك من أفهام العقلاء. ونعوذ بالله من غلبة الوهم على الفهم وتلاعب الهوى بالذهن.

﴿ بيان أن العلو المعنوي من المجاز الشائع في كلام العرب ﴾

والعلو المعنوي منتشر في القرآن مستفيض في لغة العرب في وصف الخالق والمخلوق على ما يليق بكل (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون) (ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين) (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم) والظهور هنا هو العلو (إن فرعون علا في الأرض) (وإنا فوقهم قاهرون) (وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين) (وليتبروا ما علوا تتبيراً) (لا تخف إنك أنت الأعلى) ولما ذاق المشركون حلاوة النصر المؤقت يوم أحد قال قائلهم (أعْلُ هُبَل) وهو اسم صنم لهم أجابهم المسلمون عن أمر رسول الله ﷺ بقولهم: (الله أعلى وأجل) وفي شعر العرب:

ولما علونا واستوينا عليهمُ * تركناهموا مرعىً لنسر وكاسر

ولو ذهبنا نستقصي ما في الكتاب العزيز من ذلك وما في كلام العرب لكان مجلدا، وأين علو المكان من علو السلطان؟ وهل العلو في المكان إلا كمال جسماني عرضي نازل كل النزول عن الكمال الذاتي الأصلي؟ تعالى الله عما يخطر للواهمين. وقال الامام أبو جعفر في قوله تعالى: (كل شيء هالك إلا وجهه) إلا هو. فانظر كيف حمل الوجه على الذات ولم يحك فيه خلافاً لمن تقدمه. وقال البخاري في

جامعه فى تفسير سورة القصص (كل شىء هالك إلا وجهه) إلا ملكه و يقال : إلا ما أريد به وجه الله . اهـ، فقد حمل الوجه على الملك جازما به . ولا أظن عاقلا يرتاب فى أن البخارى من خير السلف . وقال البخارى أيضاً فى تفسير سورة هود فى قوله تعالى (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) فى ملكه وسلطانه . اهـ كلام البخارى رضى الله عنه .

وقال الله تعالى (والله واسع عليم) فالسعة المتعارفة عظم امتداد الجسم فهل قال ذلك أحد من السلف ؟ حاشاهم من ذلك . واستمع إلى ماقال الامام الطبرى رضى الله عنه قال يقول« جل ثناؤه : (والله واسع) الفضل جواد بعطاياه فزوجوا إماءكم فان الله واسع يوسع عليهم من فضله إن كانوا فقراء (عليم) يقول هو ذو علم بالفقير منهم والغنى ، لا يخفى عليه حال خلقه فى شىء وتدبيرهم اهـ وقال تعالى (و إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) وقال فى آية أخرى (ألا إنه بكل شىء محيط) هل فهم فيه أحد من السلف إلا إحاطة العلم والاقتدار ؟ فبينوا المعنى وعينوا. قال الامام الطبرى فى تفسير الآية الاولى : يقول جل ثناؤه واذكر يا محمد إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس قدرة ، فهم فى قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته ونحن مانعوك منهم فلا تهيب منهم أحدا وامض لما أمرناك به من تبليغ رسالتنا. ثم نقل بأسانيده نحو ذلك عن أحبار المفسرين من التابعين : الحسن ومجاهد وقتادة . وقال فى الآية الثانية : يقول تعالى ذكره (ألا إن الله بكل شىء) مما خلق (محيط) علما بجميعه وقدرته عليه لا يعزب عنه علم شىء منه أراده فيفوته ، ولكنه المقتدر عليه العالم بمكانه اهـ وقال تعالى (الله نور السموات والأرض) هل فهم أحد من السلف أنه هو ذلك النور الفائض على الحيطان والجدران المنتشر فى الجو ؟ جل مقام العلماء بالله وكتابه أن يفهموا هذا المعنى الظاهر العامى . قال حبر الامة ابن عباس فيما رواه عنه الطبرى بالسند الصحيح : الله سبحانه هادى أهل السموات والأرض . وروى نحوه عن أنس بن مالك ، وروى عن مجاهد أن معناه

المدبر ، ورجح الامام الاول وزيف ماعداه ، وقد سمعت ماقاله فى معنى الاحاطة وأنها مصروفة إلى إحاطة العلم والمشيئة والاقتدار ، وليس معناها مايفهم من إحاطة جسم بجسم والتفافه حوله واشتماله عليـه ، تعالى الله عن صفات الاجسام وسمات الحدوث . وهكذا لو استقريت أقوال السلف من مظانها لرأيت الكثير الطيب من بيان المعانى اللائقة بالله تعالى على سبيل التعيين ، فمن نقل عـدم التعيين مطلقا عن السلف فما دقق البحث ولا اتسع اطلاعه . وهـذا صحيح البخارى بين أيدينا وتفسير ابن جرير الطبرى بين أظهرنا يناديان بما قلنا ، وإنما ذكرنا ماذكرنا لك من ذلك على سبيل التمثيل لندلك بما سمعت على مالم تسمع ، ولانريد فى هذا الوجيز الاستقصاء ، وعليك بكتاب الاسماء والصفات للحافظ البيهقى و بمراجعة ماقال العلماء فى شروح الأحاديث المشكلة وما نقلوه عن أكابر السلف فى ذلك فقـد قدمنا لك نقـل الامام أبى بكر بن العربى عن مالك أنه قال فى حـديث النزول : هو نزول رحمـة لانزول نقلة ، ولعله رضى الله عنـه لم يبلغه الحديث المفسر له أو لم يستحضره أو بلغه من طريق لايعتمد عليه ، وقد أخرج النسائى فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنـه رفعه « إن الله يمهل حتى إذا مضى شطر الليل أمر مناديا أن ينادى ألا من سائل فأعطيه » الحديث . فتبين به أن إسناد النزول إليه تعالى إسناد مجازى ، فالمجاز فى الاسناد وليس فى الطرف ، وليس ذلك بغريب فى القرآن العزيز (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) والمعنى إذا قرأه عليك جبريل بأمرنا ، كما يعلم ذلك من قرأ ما أخرج البخارى عن ابن عباس فى بدء الوحى فقد أزيل الاشتباه فى الحديث بهذه الرواية كما تزيل الاشتباه فى الآية الآية الأخرى ، وصح النقل عن حبر الأمة ابن عباس أنه فسر الاستواء بالعلو ولم يفسره بالجلوس . وقد علمت ماقاله الامام الطبرى فى معنى العلو ، ونقلنا لك عن الذهبى نفسه مايفيد إجماع علماء الامصار أنهم يقولون كلهم بلا كيف ، وشرحنا معناه بما يزيل عنك الالتباس إن شاء الله تعالى

وبعد — فقد سبقتنا أساطين العلماء رضى الله عنهم فدونوا فى المتشابهات الكتب الكثيرة القيمة بين مطول مفيد ومقل مجيد ، فاملأ قلبك بتنزه الله تعالى عن هذه الظواهر الحسية الجسمية ، ولا عليك إذا لم تصل إلى المعنى المعين فله أهل ، فرد الامر إلى أهله ، ويكفيك هذا القدر ، ولا تظن أن ما خفى عليك هو خفى على غيرك من أكابر أهل العلم ، فقد قدمنا أنه على قدر الرسوخ فى العلم يزول التشابه . وكان الحبر ابن عباس يقول أنا من الراسخين فى العلم ، يشير إلى أنه زال عنه التشابه وبان له الاحكام فى كثير مما تشابه على غيره ، فالمتشابهات كلها محكمات بالاضافة إلى رسول الله ﷺ حتى الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وليس يخفى عليه من علم ذلك إلا ما لا يحتمله الممكن ولا يطيقه المخلوق ، وإنما هو مختص بالحق جل شأنه من كنه الذات وحقائق الصفات على ما هى فى علم الواجب جل جلاله ، فان ذلك إنما هو من خصائصه جل شأنه ، وهذا الأمر مبين فى المطولات . والخلاصة أن التشابه أمر نسبي والذى يتضح لنا والله أعلم بمراده بعد الاطلاع على أقوال أحبار المفسرين فى قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) ان الوقف على الجلالة والقصر فيها موجه إلى نفى العلم بالتأويل الحق إلى الذين فى قلوبهم زيغ ثم ابتدأ الكلام عن الراسخين فى العلم فهم يقولون آمنا به إلى آخر ما حكى الله عنهم ، مستبصرين فى إيمانهم قد زال عنهم من التشابه على نسبة رسوخهم وسعة اطلاعهم وما أوتوا من النور الالهى المقتبس من بركة المتابعة للحضرة المصطفوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وما منهم من أحد إلا له فى العلم مقام معلوم ولا يبلغ الحد الأقصى إلا سيد المصطفين الاخيار وفوق مقامه الأعلى للرب جل جلاله من العلم ما لا يليق إلا به عز وجل ، فرحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعد طوره ، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يطهر قلوبنا من الزيغ وأن يثبتنا على الجادة حتى نلقاه على صراط مستقيم بجاه نبيه الأمين عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام .

﴿ خاتمة ﴾

﴿ نسأل الله حسن الخاتمة ﴾

اعلم أنه تعالى منذ أنشأ هذا النوع الانسانى لم يزل يتعهده برسله الكرام إقامة لحجته و إظهاراً لمحجته ، كما قال سبحانه (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وينزل من كتبه ما يناسب استعداد الأمم ، حتى إذا أوشك العالم على النهاية واقتربت الساعة وترقى استعداد النوع بعث إلى الناس كافة عربا وعجما بل إنسا وجنا نوره المبين وحجته الكبرى ونعمته العظمى خاتم النبيين وتمام المرسلين سيدنا ومولانا ونبينا محمداً ﷺ ، وأنزل عليه القرآن الحكيم والفرقان العظيم فيه الشريعة العامة الصالحة لكل زمان ومكان ، وأيده من آياته بما أظهر صدقه ظهور الشمس وتكفل بحفظ كتابه حتى تبقى حجته ظاهرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، واختار له أصحابا يكفيك فى شرفهم أنهم المواجهون بالخطاب فى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ولم يخرج عليه الصلاة والسلام من الدنيا حتى أنزل عليه فى حجة الوداع يوم عرفة — وكان يوم جمعة — قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) وكان قد أوتى جوامع الكلم وهى مايجمع العلوم الكثيرة فى الألفاظ الموجزة القليلة ، وذلك ظاهر فى كتابه المنزل عليه ، وفى نصائحه التى يرشد بها الأمة . ولما اقترب أجله الشريف أكثر من الخطب حتى لقد روى فى الصحيح عن عمر وحذيفة رضى الله عنهما « أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصبح ذات يوم ثم قام فيهم خطيبا إلى الظهر ، ثم صلى الظهر وعاد إلى خطبته حتى إذا كان العصر صلى العصر وقام خطيبا حتى غاب قرص الشمس . قال حذيفة

رضى الله عنه فما ترك من حادثة تكون بين يديه إلى قيام الساعة إلا ذكرها لنا ولا ترك من قائد فتنة يكون معه ثلاثمائة فصاعدا إلا سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته فأعلمنا أحفظنا » الحديث. فصلى الله وسلم وبارك عليه ما أحرصه على الخير لأمته وإنقاذها من الهلكة، ولقد كان قبل وفاته بنحو شهر فى مجلس جامع فجعل يقول: يا أيها الناس سلونى، ويكرر ذلك، فهابوا أن يسألوه فأنزل الله الروح الأمين جبريل ﷺ فجعل يسأله وطفق ﷺ يجيبه، وكان فى ذلك إجمال الدين كله » . وقد روى هذه القصة البخارى ومسلم فى صحيحيهما وغيرهما، وتلخيصها على ما يؤخذ من عدة روايات أنه ﷺ بعد ما كرر عليهم أن يسألوه وسكتوا إذا هم قد طلع عليهم رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منهم أحد، فوقف على المجلس ونادى. يا رسول الله: السلام عليكم أأدنو؟ فرد عليه السلام وأذن له بالدنو فدنا واستأذن فى الجلوس فأذن له فجلس فقال: ما الايمان؟ فقال هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبلقائه وتؤمن بالبعث الآخر وتؤمن بالجنة والنار، وبالصراط والميزان، وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره من الله تعالى فقال صدقت، فعجبوا كيف يسأله ويصدقه. ثم قال: ما الاسلام؟ قال هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلوات المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا وتعتمر وتغتسل من الجنابة وتسبغ الوضوء. قال فاذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال نعم، قال صدقت. ثم قال: ما الاحسان؟ قال: هو أن تعبد الله — وفى رواية — أن تخشى الله — كانك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك » الحديث، وفى آخره أنه ﷺ قال لهم: « أتدرون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: هذا جبريل جاء يسألنى لتتعلموا دينكم » . وما انتقل عليه الصلاة والسلام من الدنيا حتى تركهم على الملة بيضاء نقية ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك. وقد قام أصحابه الكرام بعده خير قيام بما عهد إليهم من نشر العلم

وتبليغ الشرع وتعليم السنن حتى كان الكتاب العزيز محفوظ اللفظ معروف المعنى وكانت الدولة بحمد الله لهذه الأمة من أول عهدها ، فقاموا بأمر الله وأنفذ الله لهم وعده الصادق فى قوله (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) الآية . وحقق لهم سبحانه قول رسوله الكريم ﷺ « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » الحديث . وقد مر فى المقدمة متنا وتخريجا ، وليعلم المطلع على كتابنا هذا أنا لم نضع فيه حديثا موضوعا ولا شديد الضعف والحمد لله على فضله .

فقام أولئك السادات جيلا بعد جيل لاظهار الدين و بيان السنن ، حتى إذا ظهر خارجى أو تكلم فى الدين مبتدع أو تلاعب زنديق قام العلماء رضى الله عنهم بما وجب عليهم من البيان ، وكثيراً ما ظاهرهم الحكام بالسيف والسنان فكان هذا الدين بحمد الله فى كل عصر ظاهراً جليا ، والعلم المنزل فى كل أوان واضحا غير خفى ، وكان من آثار ذلك أن عرفت الفرق الضالة بآرائها وأسمائها ، وهى كما سبق أول الرسالة أقليات إن تقوى بعضها حينا فما أسرع مايؤيد الله أهل السنة بنصره و يظهر سنة نبيه ﷺ ، وسير أصحابه الكرام والسلف العظام رضى الله عنهم . ولكنا أصبحنا فى زمان قد ساد فيه الجهل بما كان قبلنا يعد من بديهيات العلم ، وانتشرت الدعوى حتى ادعى الاجتهاد المطلق من لم يكن يصلح فى الازمان القريبة منا للجلوس بين طلبة الكتب المتوسطة ، فالتبس الحق بالباطل واشتبه على الناس الايمان بالكفر ، والطاعة بالمعصية ، حتى إن كثيرا ممن يعدون أنفسهم أو تعدهم العامة من العلماء والمتنورين ليرمون بالكفر من نادى رسول الله مستغيثا أو سأل الله مستشفعا به ﷺ ، وهو يعلم أنه عبد الله و رسوله قد جعله الله منبع كل خير ، ومظهر كل بركة ، وقرن قضاء الحوائج بذكره والاستشفاع به والصلاة عليه ، واتخاذه ﷺ وسيلة إليه عز وجل ، فنرى من النصح لك أيها

الأخ فى دين الله أن نرجع بك إلى المفزع عند التنازع ، وهو الرد إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله فننظر ماحقيقة الايمان والاسلام فيهما ، وما هى حقيقة العبادة شرعا ، ثم نقف بك بين يدى الكتاب والسنة وما عليه أكابر الأمة فى هذه المسألة وما يتصل بها ، على قدر ماتسعه هذه العجالة ، فاذا انتهينا من القول فى ذلك أريناك أين نبتت هذه التهويشات . و إلى الله المشتكى وهو المستعان .

﴿ وصل ﴾

الايمان على مادل عليه حديث جبريل السابق و يرشد إليه استقراء الكتاب العزيز هو تصديق النبى ﷺ فيما علم مجيئه به من عند الله علما ظاهراً مشتهرا بحيث يشبه ماعلم بالضرورة إجمالا فيما علم مجيئه به إجمالا ، وتفصيلا فى غيره على وجه مخصوص ، وهو أن يكون بحيث ترضخ له النفس ولا تأنف من إعلانه وترضى بتبعية هذا الرسول ولا تتكبر عنها ، فهو أخص من مطلق التصديق الذى هو المعنى اللغوى ، كما هو الشأن فى المعانى الشرعية مع المعانى اللغوية ، وأخص أيضا من التصديق المنطقى كما لايخفى ، وخرج بالقيد الأخير إيمان أهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وتكبروا عن متابعته ، وأنفوا عن الدخول فى دينه حسدا و بغيا ، وكتموا ماعلموا من الحق ، فاذا قوى هذا التصديق تفرع عنه التحلى بأداء الأوامر والتخلى عما نهى عنه من الرذائل ، فالأعمال الصالحة تكملة ولذلك عطفت عليه فى الآيات (و بشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) وهو فى القرآن كثير (و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) سماهم كما ترى مؤمنين ، وقد يطلق على بعض الأعمال مجازاً مرسلا من إطلاق اسم السبب على المسبب ، كقوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم كما يعلم من سبب نزولها ، وقد يطلق مجازا أيضاً على مايشمل التصديق بالجنان

والاقرار باللسان والعمل بالاركان إطلاقا للفظ على جزئى خاص من جزئيات معناه من حيث خصوصه . وهذا الجزئى الخاص هو الفرد الكامل (وهو التصديق المصحوب بما ذكر ، وهذا الاطلاق كثير فى كلام السلف رداً منهم على المبتدعة القائلين بعدم اعتبار الأعمال أصلا وعدم ضرر المعاصى رأسا ، لا قولا منهم بتكفير مرتكب الكبيرة - كما هو قول الخوارج - ولا قولا بتخليده فى النار و إن لم يكن كافرا ولا مؤمنا كما هو قول المعتزلة، فان السلف والخلف من أهل السنة قائلون بأنه لا يخلد فى النار إلا الكافر ، و بجواز العفو عن مرتكب غير الكفر بشفاعة من ارتضى و بدونها ، وأما الإسلام فهو النطق بالشهادتين فان واطأ فيه القلبُ اللسانَ أنجاه دنيا وأخرى من الخلود فى عذاب الله ، و إلا أجريت عليه الأحكام الدنيوية وكان خالداً مخلداً فى عذاب الله أبداً . وهؤلاء هم الذين قيل فيهم (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) الآية . و بهذا تعلم أن الاسلام المنجى لا ينفك عن الايمان تحققا ، وقد ينفك الايمان عن الاسلام بالمعنى المذكور كمن صدق بقلبه بما سبق واخترمته المنية قبل التمكن من النطق أو عاجله عارض خرس ، وقد يطلق الإسلام على جميع الأعمال الظاهرة المأمور بها وترك المنهيات ، وقد يطلق على الدين كله الشامل لجميع الأحكام ، وعليه قوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) وكل من الأول والثالث إطلاق على طريق الحقيقة الشرعية ، والثانى على سبيل المجاز المرسل . والإسلام إذا أطلق على ما يشمل النطق وغيره فالمراد به الفرد الكامل . والصحيح من أقوال العلماء أن ما عدا النطق والتصديق مكملات له ، والتقصير فيه ينقصه ولا يفوته ، فاذا فقد التصديق أو ترك النطق كبراً وعناداً فاتت النجاة ، والعياذ بالله تعالى . ولهذا المقام بسط وتتميم تجدهما فى المطولات .

فلننتقل بك إلى معنى العبادة شرعا ، وأرجو أن تعطى هذا المقام فضل

تنبه فان الغلط فيــه هو المزلقة الكبرى والمزلة العظمى ، التى استحلت بها دماء لا تحصى وانتهكت بها أعراض لا تعـد ، وتقاطعت فيها أرحام أمر الله بها أن توصل ، عياذاً بالله من المزالق والفتن . ولا سيما فتن الشبهات . فاعلم أنهم فسروا العبادة بالاتيان بأقصى غاية الخضوع ، وأرادوا بذلك المعنى اللغوى ، أما معناها الشرعى فهو أخص من هـذا كما يظهر للمحقق الصبار على البحث من استقراء مواردها فى الشرع ، فانه الاتيان بأقصى غاية الخضوع قلبا باعتقاد ربوبية المخضوع له ، أو قالبا مع ذلك الاعتقاد - وأوفيه للتقسيم - فان انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهرى من العبادة شرعاً فى كثير ولا قليل مهما كان المأتى به ولو سجوداً . ومثل اعتقاد الربوبيــة اعتقاد خصيصة من خصائصها كالاستقلال بالنفع والضر ، وكنفوذ المشيئة لا محالة ولو بطريق الشفاعة لعابده عند الرب الذى هو أكبر من هذا المعبود . وإنما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إياهم وغيرهما من أنواع الخضوع لتحقق هـذا القيد فيهم ، وهو اعتقادهم ربوبيــة ماخضعوا له ، أو خاصة من خواصها كما سيأتيك تفصيله . ولا يصح أن يكون السجود لغير الله فضلا عما دونه من أنواع الخضوع بدون هـذا الاعتقاد عبادة شرعاً ، فانه حينئذ يكون كفراً ، وماهو كفر فلا يختلف باختلاف الشرائع ، ولا يأمر الله عز وجل به (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) (ولا يرضى لعباده الكفر) وذلك ظاهر إن شاء الله . وها أنت ذا تسمع الله تعالى قد قال للملائكة : (اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس استكبر) وقال : (أنا خير منه) . وقال : (أأســجد لمن خلقت طينا) . والقول بأن آدم كان قبلة قول لا يرضاه التحقيق ويرفضه التدقيق فى فهم الآيات كما ينبغى أن تفهم ، فان قصر فهمك عن هذا فهذا نبى الله يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر قال الله فيهم (وخروا له سجدا) أى ليوسف ﷺ . قال الحافظ ابن كثير فى تفسيرها : « أى سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلا ، وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم إذا سلموا على

الكبير يسجدون له . ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصا بجناب الرب تعالى . هذا مضمون قول قتادة وغيره . وفى الحديث « أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ ، فقال : ما هذا يامعاذ ؟ فقال : إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك . قال : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » . وفى حديث آخر « أن سلمان لقى النبى ﷺ فى بعض طرق المدينة — وكان سلمان حديث عهد بالاسلام — فسجد للنبى ﷺ فقال : لاتسجد لى ياسلمان واسجد للحى الذى لايموت » والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم اه . وقال الامام أبو جعفر فى تفسيرها نحواً من هذا . وقد علمت أن ما هو كفر لا يختلف باختلاف الشرائع ولا يأمر الله به فى حين من الأحيان . فلم يكن سجود الملائكة لآدم ولا السجود ليوسف عليهما الصلاة والسلام مع خلو الساجدين من اعتقاد خصيصة من خصائص الربوبية بمن سجدوا له كفراً ، بل هو من الملائكة عبادة لله الذى أمرهم سبحانه ، وممن سجد ليوسف تحية جائزة ، ونسخ الجواز فى شريعتنا ، وإنما حكم العلماء بالكفر على من سجد لشمس أو قمر أو وثن من أجل أنه أمارة على الكفر الذى هو إنكار ما علم من الدين بالضرورة كما حكموا بالايمان — وهومعنى قلبى كما علمت — لمن نطق بالشهادتين من أجل أنه دليل عليه ، لا لأن الاول بمجرده كفر والثانى بمجرده إيمان .
فان تعسر عليك فهم هذا وهو ليس بعسير إن شاء الله تعالى ، فانظر إلى نفسك فانه قد يقضى عليك أدبك مع أبيك واحترامك له أن لا تسمح بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه ، فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها ، ولا يكون ذلك منك عبادة له ، لماذا ؟ لانه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقادشىء من خصائص الربوبية فيه . وتقف فى الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو

دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صليت له ، وسر ذلك هو أن هذا الخضوع الممثل في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عز وجل . وتدعو رئيسك في عمل من الأعمال أو أميرك أن ينصرك على باغ عليك أو يغيثك من أزمة نزلت بك وأنت معتقد فيه أنه لا يستقل بجلب نفع أو دفع ضر ، ولكن الله جعله سببا في مجرى العادة يقضي على يديه من ذلك ما يشاء فضلا منه سبحانه ، فلا يكون ذلك منك عبادة لهذا المدعو وأنت على ما وصفنا ، فان دعوته وأنت تعتقد فيه أنه مستقل بالنفع أو الضر أو نافذ المشيئة مع الله لا محالة ، كنت له بذلك الدعاء عابداً ، وبهذه العبادة أشركته مع الله عز وجل ، لأنك قد اعتقدت فيه خصيصة من خصائص الربوبية ، فان الاستقلال بالجلب أو الدفع ونفوذ المشيئة لا محالة هو من خصائص الربوبية ، والمشركون إنما كفروا بسجودهم لأصنامهم ونحوه لاعتقادهم فيها الاستقلال بالنفع أو الضر ونفوذ مشيئتهم لا محالة مع الله تعالى ، ولو على سبيل الشفاعة عنده ، فانهم يعتبرونه الرب الأكبر ولمعبوداتهم ربوبية دون ربوبيته ، ويقتضي مالهم من الربوبية وجب لهم نفوذ المشيئة معه لا محالة . ويدل لما قلنا آيات كثيرة كقوله تعالى (أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا في غرور) وقوله (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون) والاستفهام في الآيتين إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه . وحكى الله عن قوم هود قولهم له عليه السلام (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وقوله لهم (فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم . .) الآية وكقوله تعالى موبخالهم يوم القيامة على ما اعتقدوه لها من الاستقلال بالنفع ووجوب نفوذ مشيئتها (أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون) وقولهم وهم في النار يختصمون يخاطبون من اعتقدوا فيهم الربوبية وخصائصها (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم

برب العالمين) فانظر إلى هذه التسوية التي اعترفوا بها حيث يصدق المكذوب ، ويندم المجرم حين لا ينفعه ندم . فأن التسوية المذكورة إن كانت فى إثبات شيء من صفات الربوبية فهو المطلوب ، ومن هذه الحيثية شركهم وكفرهم ، لأن صفاته تعالى تجب لها الوحدانية بمعنى عدم وجود نظير لها فى سواه عز وجل ، كما مر مفصلا فى المقصد . وإن كانت التسوية فى استحقاقها للعبادة فهو يستلزم اعتقاد الاشتراك فيما به الاستحقاق ، وهو صفات الألوهية أو بعضها ، وإن كانت فى العبادة نفسها فهى لا تكون من العاقل إلا لمن يعتقد استحقاقه لها كرب العالمين ، تعالى الله عما يشركون . وكيف يُنفى عنهم اعتقاد الربوبية بآلهتهم وقد اتخذوها أنداداً وأحبوها كحب الله كما قال تعالى فيهم (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) والأنداد جمع ندّ وهو على ما قاله أهل التفسير واللغة المثل المناوى ، فهذا ينادى عليهم أنهم اعتقدوا فيها ضربا من المقاومة للحق تعالى عما يقولون . أما قوله تعالى فيهم : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) ونحوه فليس معناه أنهم لا يثبتون لآلهتهم ربوبية ولا خاصة من خواصها ، بل معناه أنهم إذا نوقشوا اعترفوا بالحق الذى فطر الله عليه النفوس ، ودلت عليه الكائنات ، ثم ما أسرع ما يرجعون إلى اعتقاد الربوبية الباطلة فى آلهتهم ، فينتكسون ويرتكسون كما قال عنهم فى آية أخرى : (يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) وكقوله تعالى فى طائفة منهم (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) وليس ذلك بعجيب ممن اتخذ إلهه هواه وإنك لتشاهد بين أهل الأهواء من تناقشه فى بدعته ويصغى إليك فيقتنع بالحجة وقت المناقشة ويعترف بمخالفته للحق وتظهر فيه مخايل الأنصاف ، فاذا انقضى المجلس عاد إلى ما ألف من الهوى ، وارتكس فى بدعته كأن لم يكن بينك وبينه نقاش — إلا من رحم الله — وقد رأينا ذلك كثيرا فى كثير ممن لقينا من أهل الأهواء — نسأل الله العافية بفضله — على أنه لو سلم أنهم لم يعتقدوا

لا لهم خلقا ولا رزقا ولا تدبيراً للأمر ، فهم يعتقدون فيها غير ذلك من خصائص الألوهية وهو وجوب نفوذ مشيئتها ، فانهم يرون أن شفاعتها مقبولة لا ترد وليست متوقفة على إذنه تعالى عما يقول الجاهلون به علوا كبيرا . ولذلك قال الله تعالى فى سيدة آى القرآن رداً على هذا الزعم (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) قال القاضى ناصر الدين البيضاوى فى تفسيرها : بيان لكبرياء شأنه ولأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلا أن يعارضه عنادا ومناصبة . اهـ . فانظر إلى قوله « يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة » تجده صريحا فى اعتقاد وجوب مشيئتها معه عز وجل ، ووجوب نفوذ المشيئة من خصائص الربوبية كما لا يخفى . وهذا النوع من الشفاعة هو الشفاعة الشركية وهى التى أبطلها القرآن ، فان اعتقادها كفر ، كما قال تعالى ، (أم اتخذوا من دون الله شفعاء) الآيتين . فانظر إلى قوله (من دون الله) وكما قال الله تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة) أما الشفاعة التى يعتقدها أهل التوحيد وجاء بها الكتاب والسنة فهى بعيدة من هذا بعد الايمان عن الكفر والنور عن الظلمة ، وهى دعاء الشافع للمشفوع فيه فيستجيب بفضله لمن شاء ، وهو معنى الاستثناء فى قوله تعالى (إلا باذنه) والمراد هنا بالاذن الرضا كما قال فى الآية الأخرى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وكقوله : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وبهذا يتبين لك الفرق بين ما أثبته القرآن من الشفاعة وبين ما نفاه منها ، وهو ما كان بغير إذنه ورضاه ، جل أن يكون فى ملكه إلا ما يشاء ، أما الشفاعة باذنه ورضاه من عباده المصطفين الأخيار لعصاة الموحدين فهى جائزة بل واقعة لثبوتها بالتواتر وليس فيها محذور ، واعتقادها من الدين ، فانها من باب الدعاء وهو تعالى يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله . وعسى أن يكون قد وضح لك إن شاء الله ما هو معنى العبادة شرعا ، وحينئذ تعلم أنه ليس

من عبادة غير الله فى شىء أن يبتغى المسلم إلى الله الوسيلة ، فلننقل الكلام إلى ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه الكرام ومن تبعهم باحسان من العلماء سلفاً وخلفاً فى ابتغاء الوسيلة فنقول و بالله التوفيق وعليه الاعتماد لا رب غيره . قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) وهى كل ما جعله الله سبباً فى الزلفى عنده ، ووصلة إلى قضاء الحوائج منه ، واتخاذ الوسيلة يسمى توسلا ، والتوسل إليه تعالى إما بأسمائه وصفاته وهو ثابت من فعله ﷺ مروى فى السنن والمسانيد ، غنى بشهرته عن ذكر شواهده فى هذا المختصر ، داخل فى الآية الكريمة . وإما بالأعمال الصالحة المأمور بها شرعاً ، وإما بالذوات المرضية عنده من الأنبياء والملائكة والصالحين ثم التوسل بالعمل المأمور به على قسمين (أحدهما) : فعله والاتيان به على الوجه الذى أمر به من أداء شرائطه وأركانه وآدابه وتجنب مايفسده أو يخلُّ به توسلا بذلك إلى قربه سبحانه ورضاه والفوز بما وعد به عباده الصالحين فضلا منه ورحمة . ولا خفاء فى أن هذا النوع من التوسل هو ما عليه النبيون والمرسلون والملائكة المقربون وجميع عباد الله الصالحين ، ولا ينكره إلا خارج على الأديان السماوية والكتب المنزلة ، وهو من أول ماتشمله الآية الكريمة . والقسم الثانى أن يدعو الله بعمله إذا وقع فى شدة كما وقع للثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فسال السيل فألقى على الغار صخرة سدت فمه فصاروا لا يستطيعون الخروج ، فقال بعضهم لبعض : ياهؤلاء إنه لا يُنجيكم مما أنتم فيه إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح ماعملتم عسى أن يفرج الله عنكم ما نزل بكم ، فدعا كل منهم بصالح مايرجو قبوله من عمله ، فحقق الله رجاءهم وفرج كربتهم بفضله وليس هذا من القسم الأول كما لا يخفى ، فانهم فى الغار لم يعملوا هذه الأعمال بل دعوا بما عملوا ، فكان ما نالوا من الفرج ليس مسبباً عن العمل نفسه بل عن الدعاء متشفعين إلى الله به . وحديث قصتهم صحيح بل مشهور مستفيض أخرجه البخارى فى صحيحه وغيره من الأئمة ، فالآية الكريمة تشمله أيضاً .

وأما التوسل بالذوات الفاضلة النبي ﷺ فمن دونه من المرضيين عنده تعالى فهو على ثلاثة أنواع نذكرها ، (النوع الاول) أن يسأل الله مستشفعا بهم كأن يقول : اللهم إنى أسألك بنبيك محمد أو أتوجه إليك به أو أتوسل أو أتشفع به أو بجاهه أو بقدره أو بحرمته أو بحقه، و يريد من الحق ماتفضل الله به عليه من الكرامة وعلو المنزلة لديه ، أو بالانبياء والملائكة والصالحين ، فقد وردت به الاحاديث الصحاح فتعمه الآية الكريمة ، وهو من فعل النبي ﷺ والصحابة والتابعين لهم بإحسان ، قبل وجود المتوسل به فى حياته الدنيا و بعده فى أثنائها وفى حياته فى البرزخ : أخرج البيهقى فى دلائل النبوة وهو الكتاب الذى قال فيه الذهبى : عليك به فكله هدى ونور ، والطبرانى فى المعجم الصغير ، والحاكم فى مستدركه على الصحيحين أو أحدهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم عليه السلام الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لى ، فقال الله يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال يارب لأنك لمّا خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى إذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ماخلقتك اه ولفظ الطبرانى فى المعجم : « إلا غفرت لى » بدل « لما » وهو بمعناه ، وفيه أن آدم عليه السلام قال : تبارك اسمك لما خلقتنى رفعت رأسى إلى عرشك فاذا فيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدرا ممن جعلت اسمه مع اسمك ، فأوحى الله عز وجل إليه يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك و إن أمته آخر الأمم من ذريتك ولولاه يا آدم ماخلقتك . قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذا الكتاب . وذكر الحاكم مع هذا الحديث أثرا عن ابن عباس وصححه : « أوحى الله إلى عيسى عليه السلام ياعيسى

آمن بمحمد وآمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ماخلقت آدم ، ولولاه ماخلقت الجنة والنار . ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن » ورواه كذلك أبو الشيخ فى طبقات الاصفهانيين وأقره السبكى فى شفاء السقام ، والبلقينى فى فتاويه ، ومثله لايقال رأيا فحكمه الرفع . ذكره الزرقانى فى شرح المواهب . وفى هذا الأثر أن الله تبارك وتعالى قد جعل فى اسمه البركة فما الظن بمسماه ﷺ . وقد تعقب الذهبى وتبعه ابن تيمية فحكم بوضع هذا الحديث من أجل عبد الرحمن بن زيد أحد رواته ، وقد جازف فى هذا الحكم كعادتهم فيما لم يوافق أهواءهم ، فأن عبد الرحمن بن زيد لم يتهمه أحد من النقدة بالوضع وإنما طعن فيه لسوء حفظه وغفلته مع قول الكثير فيه إن عبد الرحمن صالح فى نفسه وهو من رجال الترمذى ، وقال فيه ابن عدى له أحاديث حسان وهو ممن احتمله الناس وصدقه بعضهم وهو ممن يكتب حديثه ، وقال أبو حاتم الرازى هو أحب إلى من ابن أبى الرجال ، وقد علم أهل الخبرة بهذا الفن أن الرجل يكون فيه سوء الغلط والغفلة فى سن دون سن ، وفى الرواية عن رجل دون رجل . وعبد الرحمن قد روى هذا الحديث عن أبيه والرجل فى الرواية عن أبيه أبعد عن الغلط وأقرب إلى الضبط ، ولعل هذا من القرائن التى قامت عند الحاكم على القول بتصحيح حديث عبد الرحمن هذا ، وقد سمعت قول ابن عدى فيه : إن له أحاديث حسانا فلا يبعد إذن تصحيح الحاكم لهذا الحديث كما لايخفى .

وقد روى القاضى عياض بالسند الصحيح إلى الامام مالك أن أبا جعفر المنصور استفتاه فى استقبال رسول الله ﷺ وقت الدعاء عند الزيارة الشريفة . قال ومالك لاتستقبله وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . وماأبدع ماقال العلامة المحقق الألوسى فى تفسيره فى قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) بعد أن ذكر وجهين فى تفسير (كلمات) : « وقيل رأى مكتوبا على ساق العرش محمد رسول الله فتشفع به . وإذا أطلقت الكلمة على عيسى عليه السلام فلتطلق الكلمات على الروح

الأعظم والحبيب الأكرم ﷺ فما عيسى بل وما موسى بل وما وما إلا لبعض من ظهور أنواره وزهرة من رياض أنواره اهـ . وكأنه لم يطلع على حديث الحاكم وهذا الأثر فحكاه بقيل ، أو أن ذلك من زيادة ابنه السيد نعمان عفا الله عنه فقد حدثنا الثقة أنه زاد في تفسير والده شيئاً مما يوافق أهواء ابن تيمية

وأخرج الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل من طريق عبد الملك بن هارون عن ابن عباس وله طريق أخرى عن عطاء عن الضحاك عن الحبر رضي الله عنه أخرجه منها أبو نعيم في الدلائل أن يهود كانوا إذا قاتلوا غطفان وأسد وغيرهما من مشركي العرب من قبل أن يبعث محمد ﷺ يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا يقولون : اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلا نصرتنا عليهم فينصرون (فلما جاءهم ماعرفوا) يريد محمداً ﷺ ولم يشكوا فيه (كفروا به) قال العلامة المحدث الشريف الحسني عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري في كتابه الذي سماه « إتحاف الأذكياء بما ورد في التوسل بسيد الأنبياء وغيره من الصالحين والأولياء » ووجه الدليل من هذا الأثر ظاهر فان الله تعالى أقرهم على توسلهم بالنبي ﷺ ولم يذمهم عليه . وإنما ذمهم على جحودهم وكفرهم به بعد ما شاهدوا من بركة التوسل به مالا ينكره إلا من كان مثلهم أعمى القلب والبصيرة عافانا الله من ذلك بحق نبيه . اهـ ، وأخرج الترمذي في جامعه وصححه والحاكم في المستدرك وصححه وأقره الذهبي والبيهقي في الدلائل وصححه وغيرهم عن عثمان بن حنيف – بالتصغير – أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني قال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك . فقال يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ثم يدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي ، اللهم فشفعه في – أي اقبل تشفعه به – قال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وقد

أبصر كأنه لم يكن به ضر » وأخرج أبو نعيم فى المعرفة والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس بسند قال السيوطى هو حسن والطبرانى واللفظ له فى معجميه الكبير والاوسط بسند قال فيه نور الدين الهيثمى فى كتابه مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح إلا واحدا وثقه الحاكم وابن حبان. قال وفيه ضعف، قلت : ولكنه قد جبر روايته من عدة طرق عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : «لما ماتت فاطمة بنت أسد أم على رضى الله عنهما دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال رحمك الله يا أمى ، كنت أمى بعد أمى تجوعين وتشبعينى ، وتعرين وتكسينى وتمنعين نفسك طيبا وتطعمينى، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً . فلما بلغ الماء الذى فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقها ، ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى وعمر بن الخطاب وغلاما أسود يحفرون فحفروا قبرها ، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه، وقال : الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فانك أرحم الراحمين ، وكبر عليها أربعا وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما »: وأخرج الطبرانى فى معجميه الكبير والصغير بسنده عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته فلقى ابن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف إيت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك فيقضى حاجتى - وتذكر حاجتك - ورح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان بن عفان رضى الله عنه فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه على

الطِّنفِسة فقال ما حاجتك ؟ فذكر حاجته وقضاها له ، ثم قال له ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة . وقال ما كانت لك من حاجة فاذكرها ، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فى ، فقال عثمان بن حنيف والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره . وساق القصة المتقدمة فى حديث الترمذى الذى سبق قريبا . ثم قال والحديث صحيح وقال العلامة المحدث عبد الله بن محمد فى كتابه السابق لم ينص فى معاجمه على تصحيح حديث غير هذا الحديث وأقره على هذا التصحيح الحافظان زكى الدين المنذرى ونور الدين الهيثمى اه .

وأخرج الامام أحمد والحافظ ابن خزيمة والطبرانى فى الدعاء وأبو نعيم الأصبهانى وابن ماجه واللفظ له عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاى هذا فانى لم أخرج أشَرا ولا بطَرا ولا رياء ولا سمعة وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تعيذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك » قال الحافظ العراقى فى المغنى فى هذا الحديث : إنه حسن وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن بلال مؤذن رسول الله ﷺ قال « كان النبى ﷺ إذا خرج إلى الصلاة قال بسم الله آمنت بالله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك » الحديث إلا أنه قال مخرجى بدل ممشاى ، وقال بعد أن تعيذنى من النار وتدخلنى الجنة . قال السيد محمد مرتضى الزبيدى فى شرحه للأحياء فى تفسير السائلين : هم المتضرعون إلى الله بخالص طوياتهم ، وهذا أخص أوصاف الأولياء والصالحين رضى الله عنهم ونفعنا بهم . اه . وكفى بهذه الاحاديث حجة على العمل بهذا النوع وشمول الآية الكريمة له لمن أنصف .

والنوع الثانى من التوسل بأهل الفضل هو أن يطلب المتوسل من المتوسل به أن

يشفع إلى الله فى حوائجه بأن يدعو الله له فى قضائها ، فانه لامعنى للشفاعة عند الموحدين إلا هذا . والنوع الثالث هو أن يطلب نفس الحوائج منه وهو يريد أن يتسبب فى قضائها من الله تعالى بشفاعته فيها عند الله سبحانه ودعائه ربه فى قضائها للمتوسل ، فيرجع إلى النوع الثانى كما لا يخفى . وظاهر أن كلا النوعين لا يتصور إلا بعد وجود المتوسل به وكل منهما ثابت من فعل الصحابة معه ﷺ فى حياته الدنيا و بعد وفاته فى حياته فى البرزخ ، فلا وجه لاخراجهما من الآية الكريمة ، أما ما كان منهم معه فى حياته الدنيا صلى الله عليه وعليهم فهو مشهور مستفيض بل متواتر امتلأت به كتب الأحاديث كلها ، لا يرتاب فيه سنى ولا مبتدع ، وقد كانوا رضى الله عنهم يفزعون إليه عند النوائب ولا بأس بذكر شىء من ذلك تبركا . أخرج البخارى فى أبواب الاستسقاء من صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه من طرق قال « بينما النبى ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ دخل رجل من باب المسجد فاستقبل النبى ﷺ قائما فنادى يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا ، فرفع يديه ﷺ فقال : اللهم أغثنا ، ثلاثا . قال أنس : ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب فمطرنا يومنا هذا والذى يليه إلى الجمعة الأخرى ، فجاء ذلك الرجل أوغيره وقال يا رسول الله تهدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشى ، فرفع يديه ﷺ وقال : اللهم حوالينا ولا علينا ، وجعل يشير بيده فلا يشير إلى ناحية إلا انجاب عنها السحاب ، وخرجنا نمشى فى الشمس » . وأخرجه مسلم وفيه « فجعلت تمطر حول المدينة ولا تمطر بالمدينة قطرة ، فنظرت إلى المدينة وإنها لمثل الاكليل » . وأخرج البيهقى فى الدلائل أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله أتيناك ومالنا بعير يئط ولا صبى يغط ثم أنشده شعرا يقول فيه :

أتيناك والعذراء يدمى لبانها — وقد شغلت أم الصبى عن الطفل

إلى أن قال

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام يجر رداءه حتى صعد المنبر فرفع يديه فقال : اللهم اسقنا . . وذكر دعاءه إلى أن قال : فما رد النبي ﷺ يده حتى ألقت السماء بأرواقها ، وجاء الناس يضجون الغرق الغرق . فقال النبي ﷺ « حوالينا ولا علينا » فانجاب السحاب عن المدينة وضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه . ثم قال لله در أبي طالب ، لو كان حيا قرت عيناه . من ينشدنا قوله ، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول الله كأنك تريد قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وتواصل

وقوله (يئط) بفتح فكسر وطاء مشددة من الأطيط وهو هنا صوت البعير من ثقل الحمل . و يغط كيئط ، من الغطيط وهو صوت النائم ، والكلام كناية عن شدة الفقر والجوع والقحط . و يدمى كيسعى واللبان بالفتح – الصدر ، وهو كناية عن الجهد ، وأرواق السحاب مياهها الصافية جمع روق بفتح فسكون . وأخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود أن قريشا أبطؤا عن الاسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام . فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وإن قومك هلكوا فادع الله تعالى ، فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث فأطبقت عليهم سبعا وشكا الناس كثرة المطر قال اللهم حوالينا ولا علينا . فانحدرت السحابة عن رأسه فسقوا والناس حولهم » قال الحافظ في الفتح والظاهر أن ذلك كان بمكة . وأخرج عن أبي هريرة « أنه شكا إليه ﷺ النسيان لما يسمع من حديثه الشريف ، وهو يريد أن يزول عنه ذلك ، فأمره ﷺ أن يبسط رداءه فبسطه فقذف بيده الشريفة من الهواء في الرداء ثم قال ضمه فضمه قال أبو هريرة فما نسيت شيئا بعد » . وثبت أنهم شكوا إليه الحمى « فدعا الله فحولها عنهم » وصح أن قتادة أصيب بسهم في عينه فسالت على

شدته فالتفت إلى رسول الله فقال عيني يارسول الله « فخيره بين الصبر و بين أن يدعو له فاختار الدعاء فردها عليه الصلاة والسلام إلى موضعها وقال: اللهم اجعلها أحسن عينيه فعادت أحسن ما كانت » وهذا بحر واسع لاسبيل إلى استقصائه .
والاحاديث والآثار صريحة فى النوعين جميعا . تارة يقولون ادع يارسول الله ، وتارة يرفعون إليه مايريدون و يطلبون منه الحاجة وهم يريدون الشفاعة فيها إلى الله والدعاء والتسبب بما أقدره الله عليه ، فاذا الحاجة قد قضيت بأذن الله تعالى. وأخرج البخارى عن عبد الله بن عمر : ربما ذكرت قول الشاعر - يعنى قول أبى طالب المار - وأنا أنظر إلى وجه النبى ﷺ يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب .
وعن أنس أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . وذكر الحافظ فى الفتح عن الزبير بن بكار بأسناده عن عبد الله بن عمر قال استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة - بفتح الراء وتخفيف الميم - بالعباس بن عبد المطلب ثم خطب الناس فقال إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس مايرى الولد للوالد فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ فى عمه العباس ، واتخذوه وسيلة إلى الله . وكان من كلام العباس لما استسقى به عمر أن قال : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث . فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الارض وعاش الناس . قال الحافظ و يستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة ، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه اه . ومن دعاء العباس الذى ذكرناه لك تعرف أن العباس إنما توسل فى دعائه بالنبى ﷺ ، ألا ترى إلى قوله « وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك » أى لقرابتى منه . فكأنه قال بعد هذه اللفظة « فاحفظ اللهم نبيك فى

عمه » بل روى التصريح بها . ومن خطبة عمر السابقة تعرف جليا أنه إنما أراد إظهار فضل أهل بيته ﷺ وعليهم ، وتوقير العباس اقتداء به عليه الصلاة والسلام فى توقيره . وتعليم الناس ذلك . وفى قوله رضى الله عنه « واتخذوه وسيلة إلى الله » بمحضر الصحابة أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يفهمون من قوله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة) قصر الوسيلة على الأعمال كما يتشدق به جهلة العصر تبعا لمن غلط قبلهم فى ذلك، وفى رواية بعد قول عمر فاسقنا أنه أمر العباس بالدعاء فقال ادع ياعباس ، فدعا العباس بما سبق . وفى هذا الأثر الصحيح الجمع بين النوعين الأولين والتوسل بالنبى ﷺ بعد وفاته على أبلغ وجه ـ وأما ما كان من الصحابة الكرام معه ﷺ بعد وفاته فمنه ما أخرج ابن أبى شيبة بسند صحيح كما فى الفتح ،والبيهقى فى الدلائل بسند صحيح أيضاً عن مالك الدارى ــ وكان خازن عمر ــ قال : أصاب الناس قحط فى زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبى ﷺ فقال يا رسول الله استسق لأمتك فأنهم قد هلكوا ، فأتى النبى ﷺ الرجل فى المنام فقال : إيت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له عليك الكيس الكيس ، فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر رضى الله عنه وقال : يارب ما آلو إلا ماعجزت عنه ، وهو مضارع ألا أى قصر وترك . وذلك الرجل هو بلال بن الحارث المزنى أحد الصحابة الكرام . وقوله « الكيس » بفتح الكاف وسكون الياء المثناة ــ النشاط والاجتهاد . وأخرج الدارمى بسنده صحيح فى (باب ما أكرم الله به نبيه ﷺ بعد الموت) من كتاب السنن له عن أبى الجوزاء أوس بن عبد الله التابعى الجليل قال قحط أهل المدينة قحطا شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت انظروا قبر النبى ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، قال ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الأبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق ـ وكأنها رضى الله عنها أرادت المبالغة فى الاستشفاع به ﷺ . وقولها : اجعلوا منه ، أى مما يحاذيه

من سقف الحجرة الشريفة كما هو ظاهر . والكوى جمع كوة كقوة والمراد بها النوافذ الصغيرة ـ فأنت ترى فى أثر بلال بن الحارث الصحابى أنه نادى النبى ﷺ عند قبره مستغيثا به للأمة أن يستسقى لها ، ولم ينكر عليه أحد ذلك ، وفى حديث عثمان بن حنيف أن النبى ﷺ علم الضرير أن يسأل الله به وأن يناديه وهو غائب عنه بقوله يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى ، ثم علم عثمان بن حنيف هذا الدعاء بعد وفاته ﷺ للرجل الذى شكا اليه إبطاء الخليفة عثمان بن عفان عن حاجته ففعل الرجل وأخبره ، ولما ظن أن حاجته قضيت بسبب كلامه مع الخليفة بادر ابن حنيف بنفى ذلك وحدثه بقصة الضرير التى شهدها ليثبت له أن حاجته إنما قضيت بسبب ماعلمه من التوسل برسول الله ﷺ وندائه إياه واستغاثته به وأكد ذلك بالحلف له فانه قال والله ما كلمته ولكنى شهدت رسول الله ﷺ ، إلى آخر مامر . ومن الضرورى أن يعلم هذا الرجل هذا الدعاء لأحبائه ويشيع هذه البركات التى نالته بسبب توسله بالنبى ﷺ واستغاثته به . والعهد عهد الصحابة والتابعين . ولم ينقل عن أحد من السلف والذين رووا هذا الحديث أن أحدا توقف فى حله فضلا عن أن جعله مكروها فضلا عن أن يكون حراما فضلا عن أن يكون شركا ، والكتب المذكورفيها هذه الآثار والأحاديث هى لأكابر متقدمين قد تداولها علماء الامة لاسيما طلبة الحديث وقد كانوا فى تلك العهود جل أهل العلم ، ولا يظن ظان أن أهل العلم فى تلك العهود كانوا من الجهل بفن الحديث على ما يرى فى هذا الزمان . ومن أراد أن يعرف قدر عنايتهم بجمع الحديث حفظا وكتابة ومدارسة فليرجع إلى التاريخ فسيجد أن الاجزاء الصغيرة ، فضلا عن السنن والمسانيد والمعاجم والجوامع والمستخرجات والمستدركات كانت بينهم مشهورة متداولة محفوظة فى الصدور حفظها فى السطور ، أفيعقل أن يكون فيها الشرك مأثورا عن الصحابة والتابعين ويسكتون عن بيان وضع تلك الاحاديث والآثار ! حاشا وكلا ، فالتوسل بالنبى ﷺ والصالحين سواء كان من النوع

الأول وهو أن يسأل الله الحاجة بهم ، أو النوع الثانى وهو طلب الدعاء منهم ، أو الثالث وهو رفع الحاجة اليهم بعد وفاتهم لم يزل بين العلماء متعارفا سلفا وخلفا يرجون بركته و يحقق الله رجاءهم فى الاعم الاغلب ، ولا يجدون فى صدورهم حرجا من ذلك ، فإنهم إنما يطلبون حوائجهم من الله و يسألونه ، و يعلمون أنه الخالق لارب غيره ، وأن النبى ﷺ وصالحى أمته فى حياتهم و بعد وفاتهم قد جعلهم الله أسبابا لقضاء حوائج عباده بشفاعتهم ودعائهم فضلا منه و رحمة . ونداء الصالح حيا أو ميتا حاضرا أو غائبا ليتوجه إلى الله فى شأن المنادى الموحد ليس إلا استفتاحا لرحمة الله تعالى ببعض ما جعل من مفاتيحها له والمستغيث برسول الله ﷺ ليس طالبا منه أن يخلق مع الله شيئا ولكنه طالب منه أن يدعو له ، والأنبياء أحياء فى قبورهم ، يطلعهم الله على ما شاء من أحوال هذا العالم ـ وقد جمع الحافظ البيهقى جزءاً فى حياة الانبياء . وقد ثبت أن النبى ﷺ تعرض عليه أعمال أمته كل يوم ، بكرة وعشيا ، و يبلغ صلاة المصلين عليه فى أقطار الأرض عقب انتهائهم منها و يدعو لهم . واجتماع الأنبياء به عليه وعليهم الصلاة والسلام فى الأرض والسماء ودعاؤهم له مشهور فى الأحاديث الصحاح . وفيما أظهر الله فى هذا الزمان من سماع المصرى فى مصر صوت الأمريكى وهو فى أمريكا بواسطة التيار الكهربائى المادى المتبادل ما يقرب للجاهلين ما قال أهل البصائر فى أمر العالم الروحانى وسماعه من الأحياء فى هذا العالم لا سيما الأرواح العليا المحبوبة للحق جل وعلا والتسبب به ﷺ و رجاء بركة الله بالتعلق به هو من أقوى ما يستجلب به الخير ولا يفسد التوسل بالأنبياء والصالحين إلا أن يجعلهم أربابا من دون الله و يتخذ هذا الجعل وسيلة إليهم أن يشفعوا له ؛ فهذا لا ينفعه شىء من التوسل ولا غيره لأنه باعتقاد الربوبية أو شىء من خواصها لغيره تعالى صار كافرا مشركا كما فعل النصارى مع المسيح اتخذوه ربا ليشفع لهم عند أبيه تعالى الله عما قالوا وكما فعل الوثنيون فيما حكى الله عنهم من قولهم (ما نعبدهم إلا

ليقربونا إلى الله زلفى) والعبادة شرعا كما مر لا تتحقق إلا إذا اعتقد الربوبية فيمن خضع له وليس فى المسلمين كلهم أثر من هذا . أما من لم يعبد إلا الله وحده ثم امتلأ بتعظيم حبيبه المصطفى وكُمّلِ أتباعه وتوسل إلى الله بهم على أى نحو من الأنحاء السابقة فهو أهل أن يحقق الله رجاءه ، وهو حال المسلمين المتوسلين من الخاصة والعامة فى كل عصر بحمـد الله ، لا يعرفون خـلافه وهو سبيل المؤمنين والعلماء العاملين من أهل السنة قديما وحديثا . ولم نر أحدا أنكر ذلك إلا رجلا فى القرن الثامن وتعصب له ناس ابتلوا بمـا ابتلى به فجعل يُلبِّس على العامـة وتصدى علماء عصره لردٍّ بدعته هـذه ولرد بدعه الأخرى ، ذلك الرجل هو (ابن تيمية) وكان هذا الرجـل أولا متشبها بالصالحين ثم انسلخ عن ذلك إلى التشنيع على علمـاء الأمة بتفسيقهـم وتكفيرهم . وأنقـل لك عبارات بعض الأفاضل فيه وأبدأ بعبارة الذهبى من نصيحة بعث بها إليه . قال فيها يخاطبه : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وتبا لمن شغله عيوب الناس عن عيبه ، إلى كم ترى القذاة فى عين أخيك وتنسى الجذع فى عينك ، إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذم العلماء . . . إلى أن قال : كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما . ثم قال : إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد يا خيبة من اتبعك فانه معرض للزندقة والانحـلال ، لا سيما إذا كان قليـل العلم والدين باطوليا شهوانيا لكنه ينفعك و يجاهد عندك بيده ولسانه ، وفى الباطن عدو لك بحاله وقلبه ، فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط ، خفيف العقل أو عامى كذاب بليد الذهن أو غريب واجم قوى المكر ، أو ناشف صالح عـديم الفهم فان لم تصدقنى ففتشهم وزنهم بالعدل . . إلى كم تصادق نفسك وتعادى الأخيار إلى كم تصادقهـا وتزدرى الأبرار إلى كم تعظمها وتصغر العبـاد إلى كم تخاللها وتمقت الزهاد إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح — والله — بها أحاديث الصحيحين ، يا ليت أحاديث الصحيحين تسـلم منك ، بل فى كل وقت تغير

عليها بالتضعيف والأهدار ، أو بالتأويل والانكار ، أما آن لك أن ترعوى أما حان لك أن تتوب وتنيب ؟ أما أنت فى عشر السبعين وقد قرب الرحيل ؟ إلى أن قال : فما أظنك تقبل على قولى ولا تصغى إلى وعظى ، بل لك همة كبيرة فى نقض هذه الورقة بمجلدات ، وتقطع لى أذناب الكلام ولا تزال تنتصر حتى أقول البتة سكت ، فاذا كان هذا حالك عندى وأنا الشفوق المحب الواد ، فكيف حالك عند أعدائك ، وأعداؤك والله فيهم صلحاء ، وعقلاء وفضلاء ، كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة ، وبطلة وعور وبقر . اه ما أردنا نقله منها ، وقد نقلها بتمامها العلامة المحقق الزاهد الكوثرى فى كتابه (التكملة على شرح شيخ الاسلام تقى الدين على السبكى) وقد كان شيخ الأسلام التقى معاصرا للذهبى وابن تيمية وولى مشيخة دار الحديث وخطابة الجامع الأموى بدمشق ومدحه الذهبى بقوله

ليهن المنبر الاموى لما   علاه الحاكم البحر التقى
شيوخ العصر أحفظهم جميعا   وأخطبهم وأقضاهم على

فهذه شهادة الذهبى على ابن تيمية ولشيخ الاسلام التقى ، فانظر ما قال شيخ الاسلام التقى فى ابن تيمية حين أظهر بدعة تحريم الزيارة المحمدية وإنكار التوسل والاستغاثة بحضرته عليه الصلاة والسلام فى كتابه (شفاء السقام) قال رضى الله عنه

﴿ الباب الثامن فى التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبى ﷺ ﴾

اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبى ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى ، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذى دين المعروفة من فعل الانبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين ، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الأديان ، ولا سمع به فى زمن من الأزمان ، حتى جاء ابن تيمية فتكلم فى ذلك بكلام يلبس فيه على الضعفاء الأغمار ، وابتدع مالم يسبق

اليه في سائر الاعصار . إلى أن قال : وحسبك أن إنكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله ، وصار به بين أهل الاسلام مثلة . ثم قال وأقول : إن التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل حال قبل خلقه و بعد خلقه في مدة حياته في الدنيا و بعد موته في مدة البرزخ و بعد البعث في عرصات القيامة والجنة . ثم ذكر الأنواع الثلاثة وفصلها نوعا نوعا مبينا مستدلا ، إلى أن قال: والنوع الثالث من التوسل أن يطلب منه ذلك الامر المقصود بمعنى أنه ﷺ قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته إليه فيعود إلى النوع الثاني في المعنى ، و إن كانت العبارة مختلفة . ومن هذا قول القائل للنبي ﷺ : أسألك مرافقتك في الجنة . قال : « أعني على نفسك بكثرة السجود » . قلت : أخرجه مسلم . قال : ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك إلا كون النبي ﷺ سببا وشافعا ، . إلى أن قال وليس المراد نسبة النبي ﷺ إلى الخلق والاستقلال بالأفعال ، هذا لا يقصده مسلم ، فصرف الكلام اليه ومنعه من باب التلبيس في الدين والتشويش على عوام الموحدين . و إذ قد تحررت هذه الانواع والأحوال في الطلب من النبي ﷺ وظهر المعنى فلا عليك في تسميته توسلا أو تشفعا أو استغاثة أو تجوها أو توجها ، لأن المعنى في جميع ذلك سواء » اه وقال الامام القدوة حامي السنة وقامع البدعة ابن الحاج المعاصر لابن تيمية أيضا ، وقد توفي بعده بتسع سنين في كتابه (المدخل) في فصل زيارة القبور : « وأما عظيم جناب الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيأتي إليهم الزائر ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة ، فاذا جاء اليهم فليتصف بالذل ، والانكسار والمسكنة والفقر والفاقة والحاجة والاضطرار والخضوع ، و يحضر قلبه وخاطره إليهم و إلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره ، لأنهم لا يبلون ولا يتغيرون ، ثم يثني على الله تعالى بما هو أهله ، ثم يصلي عليهم و يترضى عن أصحابهم ، ثم يترحم على التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين ، ثم يتوسل إلى الله تعالى بهم في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه

ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم ، ويجزم بالاجابة ببركتهم ، ويقوى حسن ظنه فى ذلك ، فانهم باب الله المفتوح ، وجرت سنته سبحانه وتعالى بقضاء الحوائج على أيديهم وبسببهم . ومن عجز عن الوصول إليهم فليرسل بالسلام عليهم ، ويذكر ما يحتاج اليه من حوائجه ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه إلى غير ذلك ، فانهم السادة الكرام ، والكرام لا يردون من سألهم ولا من توسل بهم ، ولا من قصدهم ولا من لجأ إليهم . هذا الكلام فى زيارة الانبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام عموما . قال رضى الله عنه ﴿ فصل ﴾ وأما فى زيارة سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه فكل ما ذكر يزيد عليه أضعافه أعنى فى الانكسار والذل والمسكنة ، لأنه الشافع المشفع الذى لا ترد شفاعته ولا يخيب من قصده ، ولا من نزل بساحته ، ولا من استعان أو استغاث به ، إذ أنه عليه الصلاة والسلام قطب دائرة الكمال ، وعروس المملكة ، ثم قال : فمن توسل به أو استغاث به أو طلب حوائجه منه فلا يرد ولا يخيب لما شهدت به المعاينة والآثار ، ويحتاج إلى الأدب الكلى فى زيارته عليه الصلاة والسلام . وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم . إن الزائر يشعر نفسه بأنه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو فى حياته ، إذ لا فرق بين موته وحياته ـ أعنى فى مشاهدته لأمته ومعرفته بأحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم وذلك عنده جلى لا خفاء فيه ـ إلى أن قال : فالتوسل به عليه الصلاة والسلام هو محل حط أحمال الاوزار وأثقال الذنوب والخطايا ، لان بركة شفاعته عليه الصلاة والسلام وعظمها عند ربه لا يتعاظمها ذنب ، إذ أنها أعظم من الجميع ، فليستبشر من زاره وليلجأ إلى الله تعالى بشفاعة نبيه عليه الصلاة والسلام من لم يزره . اللهم لا تحرمنا من شفاعته بحرمته عندك آمين يارب العالمين ومن اعتقد خلاف هذا فهو المحروم » اهـ بحروفه .

وقال الامام الفقيه المجمع على جلالته وفضله شهاب الدين ابن حجر الهيتمى

فى كتابه « الجوهر المنظم فى زيارة القبر الشريف النبوى المكرم » فان قلت : كيف تحكى الاجماع السابق على مشروعية الزيارة والسفر إليها وطلبها ؟ وابن تيمية من متأخرى الحنابلة منكر لمشرعية ذلك كله كما رآه السبكى فى خطه، وأطال أعنى ابن تيمية فى الاستدلال لذلك بما تمجه الاسماع وتنفر عنه الطباع ، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً ، وأنه لاتقصر فيه الصلاة وأن جميع الاحاديث الواردة فيها موضوعة ، وتبعه بعض من تأخر عنه من أهل مذهبه ؟ قلت : من هو ابن تيمية حتى ينظر إليه أو يعول فى شىء من أمور الدين عليه ؟ وهل هو إلا كما قال جماعة من الأئمة الذين تعقبوا كلماته الفاسدة وحججه الكاسدة حتى أظهروا عوار سقطاته وقبائح أوهامه وغلطاته كالعز بن جماعة : عبد أضله الله تعالى وأغواه وألبسه رداء الخزى وأرداه ، وبوأه من قوة إلا فتراء والكذب ماأعقبه الهوان وأوجب له الحرمان . وقال فى فتاواه الحديثيه نحواً من هذا حين سئل عنه .

وبالجملة فهذا الرجل ينطبق عليه كل الانطباق ماأخرج أبو نعيم بسند جيد عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن مما أتخوف عليكم رجلا قرأ القرآن حتى إذا ريئت عليه بهجته ، وكان رداءً للاسلام غيره الله إلى ماشاء فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره وخرج على جاره بالسب ورماه بالشرك قلت : يارسول الله أيهما أولى بالشرك ؟ الرامى أم المرمى ؟ قال : بل الرامى » قوله ريئت بمعنى رؤيت وكذلك كان هذا الرجل ، بدأ حياته بطلب العلم على ذكاء وتصالح ، ورفق به أكابر العلماء لأن أباه كان رجلا هادئا ، وكان من بيت علم ، فساعدوه وشجعوه وأثنوا عليه خيراً ، حتى إذا أقبل عليه الناس بدأ يظهر بالبدع وأبطرته الغرة فتمادى فى التعصب لآرائه ، وما زال يتلاعب به الهوى حتى كان مجموعة بدع شنعاء ودائرة جهالات وأباطيل شوهاء ، منها ماسبق به ومنها مالم يسبق إليه فتجده فى مسائل من علم التوحيد حشويا كراميا ، يقول فى الله بالاجزاء والجهة والمكان ، والنزول والصعود الحسيين وحلول الحوادث بذاته تعالى ، ومن ناحية

أخرى تجد فيه حضيضة الخوارج ، يكفر أكابر الأمة و يخطئ أعاظم الأئمة وقال:
من نذر شيئا للنبي ﷺ أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور أو ذبح له
ذبيحة كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم و ينذرون لها فهو عابد لغير الله
فيكون بذلك كافرا و يطيل فى ذلك الكلام - واغتر بكلامه بعض من تأخر عنه
من العلماء ممن ابتلى بصحبته أو صحبة تلاميذه وهو منه تلبيس فى الدين ،وصرف
إلى معنى لا يريده مسلم من المسلمين . ومن خبر حال من فعل ذلك من المسلمين
وجدهم لا يقصدون بذبائحهم ونذورهم للميتين من الأنبياء والاولياء إلا الصدقة
عنهم ، وجعل ثوابها إليهم ، وقد علموا أن أجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة
الاحياء نافعة للأموات ، واصلة إليهم ، والاحاديث فى ذلك صحيحة مشهورة
فمنها ماصح : عن سعد أنه سأل النبى ﷺ قال يانبى الله إن أمى قد افتلتت
وأعلم أنها لو عاشت لتصدقت أفأن تصدقت عنها أينفعها ذلك ؟ قال : نعم .
فسأل النبى ﷺ أى الصدقة أنفع يارسول الله ؟ قال الماء فحفر بئراً وقال : هذه
لأم سعد . فهذه اللام هى الداخلة على الجهة التى وجهت إليها الصدقة لا على
المعبود المتقرب إليه ، وهى كذلك فى كلام المسلمين ، فهم سعديون لا وثنيون ،
وهى كاللام فى قوله إنما الصدقات للفقراء ، لا كاللام التى فى قول القائل صليت
لله ونذرت لله فاذا ذبح للنبى أو الولى أو نذر الشىء له،فهو لا يقصد إلا أن يتصدق
بذلك عنه ، ويجعل ثوابه إليه فيكون من هدايا الأحياء للأموات المشروعة
المثاب على إهدائها والمسألة مبسوطة فى كتب الفقه وفى كتب الرد على هذا الرجل
ومن شايعه ، وقال من طاف بقبور الصالحين أو تمسح بها كان مرتكبا أعظم
العظائم وأتى بكلام ملتبس فمرة يجعله من الكبائر وأخرى من الشرك إلى مسائل
من أشباه ذلك قد فرغ العلماء المحققون والفقهاء المدققون من بحثها وتدوينها قبل
أن يولد هو بقرون ، فيأبى إلا أن يخالفهم وربما ادعى الاجماع على مايقول وكثيراً
مايكون الاجماع قد انعقد قبله على خلاف قوله كما يعلم ذلك من أنعم النظر فى

كلامه وكلام من قبله وكلام من بعده ممن تعقبه من أهل الفهم المستقيم والنقد السليم . وإليك مثالا التمسح بالقبر أو الطواف به من عوام المسلمين فأهل العلم فيه على ثلاثة أقوال الجواز مطلقا والمنع مطلقا على وجه كراهة التنزيه الشديدة ولكنها لاتبلغ حد التحريم. والتفصيل بين من غلبه شدة شوق إلى المزور فتنتفي عنه هذه الكراهة ومن لا فالأدب تركه وأنت إذا تأملت في الامور التي كفر بها المسلمين وجعلها عبادة لغيرالله وجدت حجته ترجع إلى مقدمتين صدقت كبراهما وهي : كل عبادة لغير الله شرك وهي معلومة من الدين بالضرورة ثم يسوق عليها الادلة بالآيات الواردة في المشركين. وكذبت صغراهما وهي قوله كل نداء لميت أو غائب أو طواف بقبر أو تمسح به أو ذبيح أو نذر لصاحبه الخ الخ فهو عبادة لغير الله ثم يسوق الآيات والاحاديث الصحاح التي لم يفهمها أو تعمد تأويلها على غير وجهها ثم يخرج من هذا القياس الذي فسدت أحدى مقدمتيه بنتيجة لامحالة كاذبة وهي أن جمهور المسلمين إلا إياه ومن شايعه مشركون كافرون وقد أجاد تلخيص هذا المذهب وأدلته وتزييفها منطقيا وأصوليا كل الاجادة سيد أهل التحقيق وتاج أهل التدقيق الامام أبو عبد الله محمد بن عبد المجيد الفاسي المتوفى سنة تسع وعشرين ومائتين وألف في مؤلف رد به على ذلك المذهب ينطق بعلو كعب هذا الامام وتفوقه على كثير من الاعلام في المعقول والمنقول وهذا مجمل من القول قد فصله العلماء قبلنا بمالا مزيد عليه فيما صنفوه لرد مفترياته شكرا لله سعيهم . ولولا ماقاموا به من ذلك لانقلبت البلاد الاسلامية كلها إلى براكين من الاخطار التي لايعلم مدى أضرارها إلا الله عز وجل

ولقد تعدى هذا الرجل حتى على الجناب المحمدي ، فقال : إن شد الرحال إلى زيارته معصية . وأن من ناداه مستغيثا به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته فقد أشرك ، فتارة يجعله شركا أصغر وأخرى يجعله شركا أكبر ، وإن كان المستغيث ممتلئ القلب بأنه لا خالق ولا مؤثر إلا الله ، وأن النبي ﷺ إنما ترفع

إليه الحوائج و يستغاث به ، عـلى أن الله جعله منبع كل خير ، مقبول الشفاعـة مستجاب الدعاء ﷺ ، كما هى عقيدة جميع المسلمة مهما كانوا من العامة .

و بنى القول : فى تـكفير المسلمين بما كفرهم عـلى أن توحيـد الربوبية لا يستلزم التوحيد فى العبادة ، وأن الرسل إنما جاءوا بالثانى ولفتوا الأنظار إلى الأول الذى كان عليه المشركون ولم يتفطن إلى ما اعتبره الشرع فى معنى العبادة الذى قدمناه . ولا إلى ما امتلأت الأرض به من القول بالتثنية والتثليث والتربيع فما فوقه للأرباب ، ولا إلى ما أجمع عليه العقلاء وأفاده الكتاب العزيز بوضوح والأحاديث الصحاح من التلازم بينهما . وقد قدمنا ذلك .فارجع إليه إن شئت وقد أوضح ذلك كل الايضاح قبلنا أكابر جهابذة لا سيما علم أعلام هـذا العصر حامل لواء الحكمة الاسلامية وأحد جماعة كبار العلماء بحق الشيخ يوسف الدجوى فيما كتبه فى مجلة الأزهر أدام الله تأييده بروح منه وجلله بالعافيـة من لدنه . وهذه البدعة من مبتـكراته قد اغتر بها ناس فقالوا بكفر من عداهم من جماهير المسلمين وسفكت فى ذلك دماء لا تحصى . وقد ألفت الكتب الكثيرة فى رد هذه البدعة وفروعها بين مطول قد جوده صاحبه ، ومختصر أفاد مؤلفه وأجاد ، ومن عجيب أمر هـذا الرجل ، أنه إذا ابتدع شيئا حكى عليـه إجماع الأولين والآخرين كذبا وزورا ، وربما تجـد تناقضه فى الصفحة الواحـدة ، فتجده فى منهاجه مثلا يدَّعى أنه ما من حادث إلا وقبله حادث إلى ما لا نهاية له فى جانب الماضى ، ثم يقول : وعلى ذلك أجمع الصحابة والتابعون ، و بعد قليل يحكى اختلاف لحق الصحابة فى أول مخلوق ماهو ؟ أهو القلم أم الماء ؟ ؟ و بينما تراه يتكلم بلسان أهل الحق المنزهين إذا بك تراه قد انقلب جهويا وسمى كل من لا يقول بذلك معطلا و زنديقا وكافرا ، وقد جمع تلميذه ابن زفيل سفاهاته و وساوسه فى علم أصول الدين فى قصيدته النونية ، و بينما تراه يسب جهما والجهمية إذا بك تراه يأخذ بقوله فى أن النار تفنى وأن أهلها ليسوا خالدين فيها أبدا ، على حين يعيب ابن العربى

الحاتمي بقوله إن العذاب ينقلب عذبا على الكفار والنار كما هي أبدا وهم خالدون فيها أبدا ، كما قال القرآن ، و يبدعه بذلك القول ، فأى الرجلين أدخل في البدعة احكم منصفا ، وفتح أبواب استباحة الفروج فنقل الثقات عن خطه القول بأن الطلاق الثلاث إذا جمع في لفظة واحدة لا يقع أصلا والمشهور عنه القول بأنه يقع واحدة ، و يحكى على ذلك الاجماع ، وقد علم أهل العلم أن الاجماع من عهد عمر إلى زمانه منعقد على خلافه : قال الحافظ بن حجر في الفتح بعد ما ذكر أجوبة العلماء عن الحديث الذى تمسك بظاهره هذا المبتدع ، و بعد ما حكى خلافا عن بعض الناس قال في آخر البحث « و في الجملة فالذى وقع في هذه المسألة نظير ما وقع في مسألة المتعة سواء ، أعنى قول جابر : إنها كانت تفعل في عهد النبي ﷺ وأبى بكر وصدر من خلافة عمر ، قال ثم نهانا عمر عنها فانتهينا ، فالراجح في الموضعين تحريم المتعة و إيقاع الثلاث للاجماع الذى انعقد في عهد عمر على ذلك ، ولا يحفظ أن أحداً في عهد عمر خالفه في واحدة منهما ، وقد دل إجماعهم على وجود ناسخ و إن كان خفى عن بعضهم قبل ذلك حتى ظهر لجميعهم في عهد عمر ، فالمخالف بعد هذا الاجماع منابذ له ، والجمهور على عدم اعتبار من أحدث الاختلاف بعد الاتفاق » اه بحروفه .

ولم يكتف — أعنى ابن تيمية — في باب الطلاق بهذا القدر ، بل قال : إن الطلاق المعلق على وجه اليمين ولو ثلاثا كأن دخلت الدار فأنت طالق . وحكى عن الصحابة أنهم لم يتكلموا في المسألة فضلا عن أنها وقعت منهم ، ولا يخجل من أن البخارى ذكر في صحيحه تعليقا بصيغة الجزم عن ابن عمر أنه سئل عن رجل قال لامرأته أنت طالق البتة إن خرجت ، فقال : إن خرجت فقد بانت منه ، وأن لم تخرج فليس بشىء . وصح عن ابن مسعود أنه سئل عمن قال لامرأته : (إن فعلت كذا و كذا فهى طالق) ففعلته قال : هى واحدة وهو أحق بها ، وكذلك رويت آثار صحاح عن على في القول بوقوع الطلاق المعلق عند وقوع المعلق

عليه ، وكذلك صح عن أبى ذر علقه تعليقا ، ومن العجيب أنه بعـد ما حكى عن الصحابة أنهم لم يتكلموا فى هذه المسألة يحكى عنهم أنهم قائلون بقوله ، ويعمد إلى آيات يتأولها على غير وجهها ، يضل بها العامة والقريبين من درجتهم من أهل العلم ، ويحكى الخلاف فى وقوع الطلاق المعلق على وجه اليمين كذبا وزورا ، وقد حكى الاجماع على وقوع الطلاق المعلق مطلقا ـ الامام الشافعى ، والامام أبوعبيد القاسم بن سلام ، والامامان أبو بكر بن المنـذر وأبو جعفر الطبرى . والإمام محمد بن نصر المروزى والحافظ ابن عبد البر فى كتابيه التمهيد والاستذكار ، فى آخرين يطول ذكرهم .

وليس من غرضنا بسط الـكلام فى بدع هذا الرجل فقد كفانا العلماء شكر الله سعيهم من عصره إلى هذا العهد المؤنة بالتصانيف الممتعة فى الرد عليها ، وإنما أردنا أن ننبهك أيها الاخ المشفق على دينه على خطر هذا الرجل وشدة جراءته على الله ورسوله وكتابه . وعلماء هذه الامة وأئمتها . وقد سيق للمحاكمة مراراً فتارة ينكر ، وأخرى يعترف ويعلن رجوعه ثم لا يلبث أن ينقض عهده . وكان كثير من أهل العلم يتوقفون فى أمره وينفون عنه كثيرا مما هو قائل به لاختفاء مصنفاته ، حتى إذا رفع الجهل رأسه فى عصرنا هذا انتدب ناس من شيعته لطبع الكثير من كتبه وكتب تلميذه ابن زفيل ، ففضحوا الرجل وشهروا به عند المحققين من أهل الفقه فى الدين ، وتبينت صحة نسبة ما كان يتورع العلماء عن نسبته إليه ، حسن ظن بالرجل . وإن نصيحتى التى أسديها لـكل مسلم نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ، وأئمة المسلمين وعامتهم هى لزوم جماعة المسلمين فى أصول الدين وفروعه كما أسلفنا الاشارة إليه فى المقدمة .

ولولا أنى أشفق عـلى القارى أن يمل لتحدثت إليـه طويلا فيما أصاب الأسلام والمسلمين من عظائم هذا الرجل ، ولبسطت له ما قال أكابر العلماء فيه وفى شـيعته ، ولـكنى أرجو أن يكون ما قدمناه كافياً لذوى النهى ـ وأحمد الله

الذى تفضل علينا بالنجاة من بدعه مع كثرة ما قرأنا من كتبه ، وكتب شيعته قديما وحديثا ، ونسأله أن يديمنا على السنة و يتوفانا عليها غير محرفين ولا منحرفين هداة مهتدين بجاه أفضل أنبيائه وخاتم رسله وأجل أصفيائه ، و بجاه سائر أنبيائه الكرام ، وسائر الصالحين من أهل السموات والأرضين ، على نبينا وعليهم من الصلوات أفضلها ، ومن التسليمات أكملها — والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من هذه الرسالة ليلة الخميس السادس من ربيع الثانى
سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف من هجرة حامل لواء
العز والشرف صلى الله عليه وعلى آله وسلم
كلما ذكره الذاكرون وغفل عن
ذكره الغافلون

﴿ كلمة لصاحب الامضاء ﴾

يستطيع الإنسان أن يدرك سر جمال الكون ويخترق بنظراته تلك الحجب الكثيفة فيرى عظمة هذا الملكوت ، ويشاهد فى صفحته ما تنطوى عليه قائقه وجلائله فينظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت مما لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ، فاذا أعوزك الشعور إلى السعادة فانظر ببصرك وبصيرتك إلى هذه الرسالة الربانية ، والنفحة الإلهية (فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان) فانك ترى فيها آيات قد فصلت ومعان قد أحكمت وأسرارا قد نشرت وحكما قد ظهرت وتدرك فيها كأنها خطاب السماء إلى الأرض ووحيه إلى العباد يهدى بها من يشاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم ولا غرو فانها مظهر من خواطر ذلك القطب الربانى وآية من آيات ذلك النور الروحانى (أستاذنا ومولانا الشيخ سلامة العزامى) ذلك الذى اتصل قلبه بجلال الخالق وجمال توحيده حتى أصبح سرا من الأسرار وصورة من الروح تعجز عن وصفها العقول وتحار فى كنهها الأفئدة فما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ؟

وإنى مع عجزى وتقصيرى أقف عند قولى

سل عن (سلامة) قاصيها ودانيها	تستلهم النفس ما يجلو غواشيها
لابدع إن هم فى الأيام يصرفها	عن غيها وبنور الله يهديها
يفيض علما وآيات مفصلة	كأنها روح وحى الله تنزيها
لم يطلب المجد فى الدنيا بدعوته	يوجه الروح للرحمن توجيها
بقوة الحق قد أدى رسالته	وما يزال يؤديها ويذكيها
وهذه آية الفرقان شاهدة	تشع نورا على الدنيا ومن فيها
أدامه الله مشكاة وتبصرة	وللحنيفة حصنا من أعاديها

محمد الفقى . من علماء الأزهر الشريف بدار الكتب المصرية

فهرس الفرقان

﴿ تم الفهرس ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة فى كتاب الاسماء والصفات

وكلمة عن مؤلفه الحافظ أبى بكر البيهقى رحمه الله

للمحدثين ورواة الأخبار منزلة عليا عند جمهرة أهل العلم لكن بينهم من تعدى طوره وألف فيما لا يحسنه فاصبح مجلبة العار لطائفته بالغ الضرر لمن يسايره ويتقلد رأيه ومن هؤلاء غالب من ألف منهم فى صفات الله سبحانه فدونك مرويات حماد بن سلمة فى الصفات تجدها تحتوى على كثير من الاخبار التالفة يتناقلها الرواة طبقة عن طبقة مع أنه قد تزوج نحو مائة امرأة من غير أن يولد له ولد منهن وقد فعل هذا التزواج والتنكاح فى الرجل فعله بحيث أصبح فى غير حديث ثابت البنانى لا يميز بين مروياته الأصلية وبين مادسه فى كتبه أمثال ربيبه ابن أبى العوجاء وربيبه الآخر زيد المدعو بابن حماد بعد أن كان جليل القدر بين الرواة قويا فى اللغة فضل بمروياته الباطلة كثير من بسطاء الرواة ويجد المطالع الكريم نماذج شتى من أخباره الواهية فى باب التوحيد من كتب الموضوعات المبسوطة وفى كتب الرجال وإن حاول اناس الدفاع عنه بدون جدوى ، وشرع الله ، أحق بالدفاع من الدفاع عن شخص ولا سيما عند تراكب التهم القاطعة لكل عذر . وفعلت مرويات نعيم بن حماد أيضا مثل ذلك بل تحمسه البالغ ادى به إلى التجسيم كما وقع مثل ذلك لشيخ شيخه مقاتل بن سليمان وبجد آثار الضرر الوبيل فى مروياتهما فى كتب الرواة الذين كانوا يتقلدونها من غير معرفة منهم لما هنالك فدونك كتاب الاستقامة لخشيش بن

اصرم والكتب التى تسمى السنة لعبد الله وللخلال ولابى الشيخ وللعسال ولابى بكر بن عاصم وللطبرانى والجامع . والسنة والجماعة لحرب بن اسماعيل السيرجانى والتوحيد لابن خزيمة . ولابن منده والصفات للحكم بن معبد الخزاعى والنقض لعثمان بن سعيد الدارمى والشريعة للآجرى والابانة لابى نصر السجزى ولابن بطة وابطال التأويلات لابى يعلى القاضى . وذم الكلام والفاروق لصاحب منازل السائرين تجد فيها ما ينبذه الشرع والعقل فى آن واحد ولا سيما النقض لعثمان بن سعيد الدارمى السجزى المجسم فانه أول من اجترأ من المجسمة بالقول « ان الله لو شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته فكيف على عرش عظيم » وتابعه الشيخ الحرانى فى ذلك كما تجد نص كلامه فى غوث العباد المطبوع سنة ١٣٥١ بمطبعة الحلبى وكم لهذا السجزى من طامات مثل اثبات الحركة له تعالى وغير ذلك وكم من كتب من هذا القبيل فيها من الاخبار الباطلة ـ والاراء السافلة ما الله به عليم فاتسع الخرق بذلك على الراقع وعظم الخطب إلى ان قام علماء أمناء برأب الصدع نظراً ورواية وكان من هؤلاء العلماء الخطابى وأبو الحسن الطبرى وابن فورك والحليمى وأبو إسحاق الاسفراينى والاستاذ عبد القاهر البغدادى وغيرهم من السادة القادة الذين لا يحصون عداً لكن كان بينهم من غلب عليه النظر على قلة خبرة منه بعلم الاثر وبينهم من كان على عكس ذلك ولذلك رأى الحافظ البيهقى أن إهمال أحد الجانبين لا يجدى نفعا فى استنقا جمهرة الرواة عما تورطوا فيه من الجهل بالله سبحانه فقام بتأليف كتاب (الاسما والصفات) ساعيا فى استقصاء ما ورد فى الابواب من الاحاديث مع تبيين الصحيح والسقيم منها وتثبيت وجه الكلام فى النصوص الواردة فى الاسماء والصفات ناقلا عن قادة النظر وسادة التأويل المعانى المرادة منها فأحسن جد الاحسان واجاد كل الاجادة الا فى مواضع يسيرة مغمورة فى بحر افضاله المواج فالله سبحانه يكافئه على هذا العمل المبرور جزاء من أحسن عملا فانه بعمله هذا انتشل عقلا

الرواة من أهل عصره ومن بعده مما تورطوا فيه من الزيغ وعرف أهل النظر الاخبار الصحاح التي لا يسوغ لهم إنكارها من الروايات الكاذبة الواجب ردها فشفى وكفى واما مؤلفه فهو الحافظ الكبير الفقيه الاصولى النقاد أبو بكر أحمد ابن الحسين بن على بن عبد الله بن موسى البيهقى النيسابورى الخسر وجردى الفقيه الشافعى ولد فى شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة فى قرية (خسروجرد) بضم الخاء وسكون السين وفتح الراء وسكون الواو وكسر الجيم وسكون الراء آخرها الدال المهملة من قرى بيهق (على وزن صيقل) وبيهق قرى مجتمعة فى نواحى نيسابور وسمع الحديث من نحو مائة شيخ أقدمهم أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى وقد تنقل فى بلاد خراسان ورحل إلى العراق والحجاز والجبال لسماع الحديث وتخرج فى الحديث على الحاكم صاحب المستدرك فمن شيوخه أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوى والحاكم محمد بن عبد الله النيسابورى ، وأبو الحسن على بن أحمد بن عبدان الاهوازى وأبو الحسين على ابن محمد بن عبد الله بن بشران ، وأبو عبد الله إسحاق بن محمد بن يوسف بن يعقوب السوسى . والقاضى أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى ، وأبو أحمد عبد الله ابن محمد بن الحسن المهرجانى ، وأبو نصر عمر بن عبد العزيز بن عمر بن عثمان بن قتادة ، وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمى الصوفى صاحب الطبقات ، والاستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى ، والاستاذ أبو إسحاق الاسفراينى المتكلم ، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم ، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الفارسى . وأبو على الحسن بن أحمد بن شاذان ، وأبو الحسين محمد بن الحسين بن محمد بن الفضل القطان ، وأبو على الحسين بن محمد بن على الروذبارى ، وأبو طاهر محمد بن محمد بن محمد بن محمش الزيادى راوى المسلسل بالاولية ، وأبو الحسن على بن محمد بن على المقرى ، وأبو محمد الحسن بن على بن المؤمل ، ومحمد بن موسى بن الفضل ، وأبو عمرو محمد بن عبد الله الاديب ،

وأبو عبد الله الحسين بن عمر بن برهان ، وأبو محمد عبدالله بن يحيى بن عبدالجبار السكرى ، وأبو محمد عبد الله بن يوسف الاصبهانى ، وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محبور الدهان وأبو محمد الحسن بن احمد بن فراس ، وأبو الحسن محمد بن محمد بن أبى المعروف المهرجانى وأبو إسحاق سهل بن أبى إسحاق المهرانى ، وأبو الحسين محمد بن على بن حشيش المقرى ؛ وأبو القاسم عبد الخالق بن على المؤذن ، وأبو الحسن على بن أحمد بن عمر بن حفص المقرى ابن الحمامى وأبو الفتح هلال بن محمد بن جعفر الحفار ، وأبو سعيد عبد الملك بن أبى عثمان الزاهد ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى طاهر الدقاق ، وأبو القاسم عبد الواحد بن محمد بن إسحاق بن النجار المقرى ، وأبو يعلى حمزة بن عبدالعزيز المهلبى الصيدلانى ، وأبو أحمد الحسين الاسد آبادى وأبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد الله الحربى - ويقال له أيضا الحرفى بضم الحاء وسكون الراء وبالفاء لكونه يتاجر فى البزور ووهم من نسبه إلى بلد بالانبار وصحف من نسبه خرقيا والحربى لا يلبس - وأبو سعد أحمد بن محمد المالينى الهروى ، وأبو زكريا يحيى بن إبراهيم ابن محمد بن يحيى المزكى ، وأبو الحسن على بن محمد بن على الاسفراينى ابن السقا ، وأبو سهل أحمد بن محمد بن إبراهيم المهرانى ، وأبو بكر أحمد بن محمد ابن الحارث الاصبهانى ، وأبو صادق محمد بن أبى الفوارس ، وأبو صالح بن أبى طاهر العنبرى ، وأبو بكر احمد بن محمد بن غالب الخوارزمى ، وأبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن احمد بن بالويه المزكى ، وأبو القاسم على بن محمد بن على الايادى ، وأبو القاسم نذير بن الحسين بن جناح المحاربى ، وأبو الفرج الحسن بن على بن أحمد التميمى الرازى ، وأبو عثمان الامام ، وأبو حامد أحمد بن محمد بن موسى النيسابورى ومنصور بن عبد الوهاب الشالنجى وأبو سهل محمد بن نصرويه المروزى ، وأبو الحسن على بن أحمد بن محمد الرزاز ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السراج وأبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن شبانة الهمذانى ، وأبو محمد الحسن بن على المؤمل

وأبو حاتم احمد بن محمد الخطيب وأبو الفتح محمد بن احمد بن أبى الفوارس البغدادى وأبو ذر محمد بن أبى الحسين بن أبى القاسم وأبو بكر احمد بن محمد الاشنانى ، وأبو عبد الله محمد بن الفضل بن نظيف المصرى ، وأبو سعيد محمد بن موسى الصيرفى ، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، وأبو جعفر الفرابى ، وأبو القاسم زيد بن أبى هاشم العلوى ، وأبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكى صاحب اللسان والسنان فى نصر المذهب . والشريف أبو الفتح ، وأبو سعيد بن أبى عمرو ، ومحمد بن نصر النيسابورى وأبو عمر محمد بن الحسين البسطامى ، وأبو منصور بن أبى أيوب ، وأبو الفتح العمرى ناصر بن محمد المروزى وأبو عبد الله محمد بن يعقوب النيسابورى ، وغيرهم من شيوخ العلم فى خراسان والجبال والحرمين والكوفة والبصرة و بغداد قال الذهبى فى طبقات الحفاظ فى ترجمة البيهقى الامام الحافظ العلامة شيخ خراسان كان عنده مستدرك الحاكم فاكثر عنه وعنده عوال و بورك له فى علمه لحسن مقصده وقوة فهمه وحفظه وعمل كتبا لم يسبق إلى تحريرها منها الاسماء والصفات وهو مجلدان والسنن الكبير عشر مجلدات والسنن والآثار أربع مجلدات وشعب الايمان مجلدان ودلائل النبوه ثلاث مجلدات والسنن الصغير مجلدان والزهد مجلد والبعث مجلد والمعتقد مجلد والآداب مجلد ونصوص الشافعى ثلاث مجلدات والمدخل مجلد والدعوات مجلد والترغيب والترهيب مجلد ومناقب الشافعى مجلد ومناقب احمد مجلد وكتاب الاسراء وكتب عديدة لا اذكرها اهـ . وقال اليافعى فى مرآة الجنان عن البيهقى : الامام الكبير الحافظ النحرير الفقيه الشافعى وأحد زمانه وفرد أقرانه فى الفنون من كبار اصحاب الحاكم أبى عبد الله بن البيع فى الحديث الزائد عليه فى أنواع العلوم له مناقب شهيرة وتصانيف كثيرة بلغت الف جزء نفع الله تعالى بها المسلمين شرقا وغربا وعجما وعربا لفضله وجلالته واتقانه وديانته تغمده الله برحمته غلب عليه الحديث واشتهر به ورحل فى طلبه إلى العراق والجبال والحجاز وسمع بخراسان من علماء

عصره وكذلك بقية البلاد التى انتهى اليها وأخذ الفقه عن أبى الفتح ناصر بن محمد العمرى المروزى وهو أول من جمع نصوص الشافعى فى عشر مجلدات اهـ وقال التاج السبكى : وفى كلام شيخنا الذهبى أنه أول من جمع نصوص الشافعى وليس كذلك بل هو آخر من جمعها ولذلك استوعب أكثر ما فى كتب السابقين ولا أعرف أحداً بعده جمع النصوص لانه سد الباب على من بعده اهـ . لكن لا يرد هذا على الذهبى لانه قال أول من جمع فى عشر مجلدات يعنى بهذا التوسع وهو حق وقد وقع مثل هذا الكلام فى كتاب ابن خلكان ومن قبله بهذا النص ثم قال التاج وقال شيخنا الذهبى كان البيهقى واحد زمانه وفرد اقرانه وحافظ أوانه قال ودائرته فى الحديث ليست كبيرة بل بورك له فى مروياته وحسن تصرفه فيها لحذقه وخبرته بالابواب والرجال وقال إمام الحرمين مامن شافعى إلا وللشافعى فى عنقه منة إلا البيهقى فان له على الشافعى منة لتصانيفه فى نصرة مذهبه واقاويله اهـ وقال عبد القادر القرشى فى طبقاته : فو الله ما قال هذا من شم توجه الشافعى وعظمته ولسانه فى العلوم ولقد أخرج الشافعى بابا من العلم ما اهتدى اليه الناس من قبله وهو علم الناسخ والمنسوخ فعليه مدار الاسلام مع ان البيهقى إمام حافظ كبير نشر السنة ونصر مذهب الشافعى فى زمنه اهـ . قال ابن الوردى : كان اكثر الناس نصراً لمذهب الشافعى اهـ وقال ابن العماد فى شذرات الذهب : الامام العلم الحافظ صاحب التصانيف . . قال ابن قاضى شهبة قال عبد الغافر كان على سيرة العلماء قانعا من الدنيا باليسير متجملا فى زهده وورعه وذكر غيره أنه سرد الصوم ثلاثين سنة وقال فى العبر توفى فى عاشر جمادى الاولى بنيسابور سنة ثمان وخمسين وار بعمائة ونقل تابوته إلى بيهق وعاش أربعا وسبعين سنة اهـ أعلى الله منزلته فى الجنة وأغدق عليه سحب رضوانه وقال ابن خلكان فى ترجمة البيهقى: واحد زمانه وفرد أقرانه فى الفنون من كبار أصحاب الحاكم فى الحديث ثم الزائد عليه فى أنواع العلوم أخذ الفقه عن أبى الفتح ناصر المروزى غلب عليه الحديث واشتهر

به أخذ عنـه الحديث جماعة منهم زاهر الشحامى ومحمد الفراوى وعبـد المنعم القشيرى وغيرهم اه واثنى عليه ابن عساكر فى تبيين كذب المفترى وقال كتب إلى الشيخ أبو الحسن الفارسى : الامام الحـافظ الفقيه الاصولى الدين الورع واحد زمانه فى الحفظ وفرد أقرانه فى الاتقان والضبط من كبار أصحاب الحـاكم أبى عبد الله الحافظ والمكثرين عنه ثم الزائد عليه فى أنواع العلوم كتب الحديث وحفظه من صباه إلى أن نشأ وتفقه وبرع فيه وشرع فى الاصول ورحل إلى العراق والجبال والحجاز ثم اشتغل بالتصنيف والف من الـكتب ما لعله يبلغ قريبا من الف جزء (أى الجزء الحـديثى ومعيار ذلك أن تبيين كذب المفترى عشرة اجزاء) مما لم يسبقه اليه أحد جمع فى تصانيفه بين عـلم الحديث والفقه و بيان علل الحديث والصحيح والسقيم وذكر وجوه الجمع بين الاحاديث ثم بيان الفقه والاصول وشرح ما يتعلق بالعربية استدعى منه الأئمة فى عصره الانتقال إلى نيسابور من الناحية لسماع كتاب المعرفة (وهو السنن الاوسط) وغير ذلك من تصانيفه فعاد إلى نيسابور سنة إحـدى وار بعين وار بعمائة وعقـدوا له المجلس لقراءة كتاب المعرفة وحضره الائمة والفقهـاء وأكثروا الثناء عليه والدعاء له فى ذلك لبراعته ومعرفته و إفادته وكان رحمه الله عـلى سيرة العلماء قانعا من الدنيـا باليسير متجملا فى زهـده و ورعـه و بقى كذلك إلى أن توفى رحمه الله بنيسابور يوم السبت العـاشر من جمادى الأول سنة ثمـان وخمسين وار بعمائة وحمل إلى خسروجرد اه وكلمة عبـد الغافر هذه هى أم ترجمة البيهقى فى كتب التراجم زاد فيها من زاد ونقص من نقص كما نقلت نصوص المترجمين له فيما سبق . وكتاب الاسماء والصفات هذا لم يؤلف مثله كما يقول التاج ابن السـبكى وكتاب السنن الـكبرى طبع حـديثا فى حيدرآباد فى عشر مجلدات ومعه الجوهر النقى فى نقد مواضع الانتقاد منه وهو من أوسع ماألف فى أدلة الشافعية بل لا يستغنى عنه أهل مذهب من المذاهب يكثر فيه جدا عن الحاكم صاحب المسـتدرك مباشرة وعن

أبى منصور على بن حمشاد صاحب تلك الكتب الضخمة فى السنن والاحكام بواسطة وقد هذبه الذهبى فى نحو نصفه فى كتاب سماه (المهذب) وهو من محفوظات دار الكتب المصريه ، والسنن الوسطى له هى المعروفة بمعرفة السنن والآثار وهى أجمع ماصنف فى نصوص الامام الشافعى رضى الله عنه وقد ركب فيها كل مركب فى نصرة المذهب ولها أهميتها عند المشتغلين باحاديث الاحكام ونقدها وليس هذا موضع بيان لطريقته فيها ، وكتاب دلائل النبوة له كتاب مبارك فى غاية النفع وقد بلغنى أنه طبع فى الهند حديثا ولم أتأكد من ذلك بعد ونسخة مخطوطة منه موجودة بدار الكتب المصرية وكتاب المدخل له مهم ألفه ليكون مدخلا لكتاب دلائل النبوة . وكتاب مناقب أحمد له يدفع فيه مانسب إليه بعض أصحابه من الكلمات الموهمة ومن جملة ماقال فيه نقلا عن الامام أبى الفضل التميمى رئيس الحنابلة ببغداد وابن رئيسها : أنكر أحمد على من قال بالجسم وقال إن الاسماء مأخوذة من الشريعة واللغة وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على ذى طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف والله سبحانه خارج عن ذلك كله فلم يجز أن يسمى جسما لخروجه عن معنى الجسمية ولم يجئ فى الشريعة ذلك فبطل إنتهى بحروفه وقال البيهقى فيه أيضا وأنبأنا الحاكم قال حدثنا أبو عمرو ابن السماك قال حدثنا حنبل بن إسحاق قال سمعت عمى أبا عبد الله يعنى الامام أحمد يقول احتجوا على يومئذ يعنى يوم نوظر فى دار أمير المؤمنين فقالوا تجئ سورة البقرة يوم القيامة وتجئ سورة تبارك فقلت لهم إنما هو الثواب قال الله تعالى (وجاء ربك) إنما تأتى قدرته و إنما القرآن أمثال ومواعظ اه قال البيهقى هذا إسناد صحيح لاغبار عليه ثم قال وفيه دليل على أنه كان لايعتقد فى المجئ الذى ورد به الكتاب والنزول الذى وردت به السنة إنتقالا من مكان إلى مكان كمجئ ذوات الاجسام ونزولها و إنما هو عبارة عن ظهور آيات قدرته فانهم لما زعموا أن القرآن لو كان كلام الله وصفة من صفات ذاته لم يجز عليه المجئ والاتيان

فاجابهم أبو عبد الله بانه إنما يجيء ثواب قراءته التي يريد إظهارها يومئذ فعبر عن إظاهره إياها بمجيئه . وهذا الجواب الذي أجابهم به أبو عبد الله لايهتدي إليه إلا الحذاق من أهل العلم المنزهون عن التشبيه إنتهى ما ذكره البيهقي في مناقب أحمد وأما كتاب الأسماء والصفات فكتاب لانظير له كما سبق تراه لايلوم من يقول إن الله في السماء أو يقول إن الله على العرش بناء على بعض الاحاديث الواردة الناطقة بذلك لكن بجرد الكون في السماء أو على العرش عن جميع معاني التمكن على خلاف معتقد المشبهة كما تجد نص كلامه عند الكلام على الاستواء وعلقنا هناك على هذا الكلام مايجب لفت النظر إليه فالقائل بانه في السماء إن كان يريد أنه متمكن فيها فهو زائغ عن الصراط السوي وأما إن كان يريد أنه في غاية من علو الشأن والمكانة بدون اعتقاد مكان له تعالى فلا غبار على كلام هذا القائل من ناحية اللغة وأما من جهة الشرع فهناك ظواهر تسيغ ذلك لكن حيث كانت الاحاديث التي وردت في ذلك لاتخلو من كلام مثل حديث أبي رزين وحديث الاوعال فالاحوط أن لاينطق به حتى مع التصريح بهذا التنزيه بل الواجب عدم النطق به أصلا سداً لباب التشبيه بمرة واحدة وليست هناك أحاديث صريحة صحيحة وحديث الجارية فيه اضطراب عظيم يحول دون التمسك به في باب الاعتقاد من تمسك بقوله تعالى (أأمنتم من في السماء) في هذا الباب فلا حجة له أصلا كما نشرح ذلك فيما نعلق على الكتاب في موضعه إن شاء الله تعالى والحاصل أنه ليس في قول البيهقي وأمثاله من تجويز القول (بانه في السماء) بمعنى علو الشأن والمكانة ، مايسر القائلين باثبات المكان والعلو الحسي أصلا . والبيهقي ينص على ذلك في مواضع من هذا الكتاب فنقل كلمة البيهقي وأمثاله في باب إثبات العلو الحسي تغفل ظاهر ومانسبوه إلى أبي حنيفة في سنده نعيم بن حماد وأبو أمه وما عزوه إلى مالك فيه عبد الله بن نافع الاصم صاحب المناكير عن مالك وما أسندوه إلى الشافعي فيه أبو الحسن الهكاري وابن

كادش والعشارى وأحوالهم معلومة عند النقاد رغم انخداع بعض المغفلين برواياتهم فلا يصح عزو القول بانه فى السماء إلى الأئمة الفقهاء أصلا . والحافظ البيهقى يكثر جداً فى الاسماء والصفات عن الامام سيف النظار والمتكلمين أبى عبد الله الحسين بن الحسن الحليمى البخارى شيخ الشافعية بما وراء النهر وهو من أركان علم أصول الدين وممن تخرج على القفال الكبير والاودنى وكتاب شعب الايمان له فى ثلاث مجلدات سماه بالمنهاج وهو يدل على مبلغ غوصه فى علم الكلام وهو أحد القائلين بتجرد الروح من أئمة السنة ومختصره موجود بدار الكتب المصرية والأصل بالأستانة وولد الحليمى هذا سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وتوفى سنة ثلاث وأربعمائة وهو من شيوخ الحاكم . ويكثر فيه أيضا عن الامام أبى سليمان أحمد بن إبراهيم الخطابى ومنزلته فى العلم أشهر من نار على علم جمع بين الحديث والفقه والادب ومعرفة الغريب ولو لم يكن له غير ما كتبه على البخارى وعلى سنن أبى داود لكفى فى معرفة مقداره العظيم فى العلم وعلو كعبه فى الفهم وهو مترجم فى طبقات الحفاظ للذهبى توفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة وهو أيضا من شيوخ الحاكم . ويكثر المصنف أيضا عن الامام أبى بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم وهو من شيوخ المصنف مباشرة وكتابه فى تأويل أحاديث الصفات معروف لكن لو اقتصر على الاحاديث الثابتة بدون تعرض للواهيات لما أبعد فى التأويل . وصولته وردوده على الكرامية مما أدى إلى أن سموه فمات شهيداً سنة ست وأربعمائة وجلالة قدره لاتنكر وإن كان لكل صارم نبوة رحمه الله تعالى ويكثر المصنف فى الاسماء والصفات عن كتاب أبى الحسن على بن محمد ابن مهدى الطبرى صاحب الاشعرى . وينقل أيضا عن الاستاذين الجبلين أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الاسفرايني المتوفى سنة ٤١٨هـ وعبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ وكنا نود لو أكثر عنهما لجلالة قدرهما فى علم أصول الدين * ولا نود التوسع بأكثر من هذا الاستطراد والله سبحانه أعلى منزلة المصنف فى

الجنـة وغفر لنا وله وحفظنـا من نزعات التعصب ونزوات النفس الامارة بالسوء وجعلنا ممن ينزل الناس منازلهم وسلك بنا سواء السـبيل وختم لنا بالخير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمـد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

تحريراً فى ١٥ صفر الخير سنة ١٣٥٨

كتبه الفقير إليه سبحانه

محمد زاهد الـكوثرى عفى عنه

﴿ ومن شعره أيضا ﴾

من اعتز بالمولى فذاك جليـل * ومن رام عزا عن سواه ذليل

ولو أن نفسى مذ براها مليكها * مضى عمرها فى سجدة لقليل

أحب مناجاة الحبيب بأوجه * ولكن لسان المذنبين كليل

﴿ فهرست كتاب الاسماء والصفات ﴾

﴿ تم الفهرس ﴾

أهم الأخطاء فى التعليقات ووجه الصواب فيها

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧١	٢٢	يعلم	أعلم
٢٠٢	١٢	إنى ـ مال	أن ـ مالا
٢٠٢	١٤	الاستلال	الاستدلال
٢١٦	٢٢	المراد	للمراد
٢٣٣	٢٠	وإنمالا	وإنما
٢٤٣	٢٠	موثوق	موثق
٢٥١	١٦	فى	إلى القدح فى
٢٦٨	٢٢	لمحد	لمحمد
٣٣٦	٢٥	وابن	وابن الجوزى والقرطبى وغيرهم
٣٣٧	١٩	الاصابع	على أن الاصابع
٣٥٤	٢٢	عن مخلد	بن مخلد
٣٥٦	١٧و٢٣	الدستى	الدشتى
٣٥٦	١٩	وحدث عن	وحدث به من
٤٠٢	١٤	(١)	(٢)
٤٠٢	٢٢	عبادة	عباد
٤٤٣	١٨	وابن عبد الرحمن	وعبدالرحمن
٤٤٣	٢١	بالمعبوث	بالمبعوث
٤٤٥	١٨	من تحمسهم	تحمسهم
٤٥٥	١٩	فمقبات	فعيقات
٤٦٠	١٩	يذكرا	يذكران
٦٨٤	١٥	ود	ورد
٤٦٨	١٧	الذين	الذى
٤٩٣	٢٢	صدر	صدد